
حول تطبيق الشريعة
محمد قطب
مكتبة السنة

حول تطبيق الشريعة

محمد قطب

مكتبة السنة

الطبعة الأولى لمكتبة السُنَّة - بالقاهرة
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م



القاهرة ٨١ شارع البستان - ميدان عابدين «ناصية شارع الجمهورية»
تليفون ٣٩٠٠٢١٨ - فاكس ٣٩٢٦٢٥٠ - تلكس TLTHRB UN ٢١٧١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

صدق الله العظيم

مقدمة

كلما ذكر تطبيق الشريعة تعالت من هنا ومن هناك صيحات منكرة ، تستنكر الأمر وتستهوله ، كأنما تطبيق الشريعة كارثة ستحل بديار المسلمين ، أو كأنما التفكير فى هذا الأمر خبل لا يصدر عن عاقل!

الآن ؟ فى القرن العشرين ؟ بعد كل ما حدث فى العالم من تطور ؟ وبعد أن أصبح العالم بفعل وسائل الاتصال الحديثة كالقرية الصغيرة ، لا مجال فيه لاتخاذ زى يخالف أزياء الآخرين ؟!

تريدون أن نشذ وحدنا عن الناس ؟!

تريدون أن ترجعوا بنا إلى الوراء ؟ أو توقفوا عجلة التطور ؟!

أم تريدون أن نعتزل العالم كله ونتقوقع على أنفسنا ؟

وفيم هذا العناء كله ؟ وما الذى يلجئنا إلى هذا الطريق الوعر ؟

ألكى نكون مسلمين ؟

أولا يكفى نطق لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ليجعلنا مسلمين ؟!

إنكم تبتدعون فى دين الله ما ليس فيه ! فالإسلام يَثْبُتُ بنطق الشهادتين، أما قضية الشريعة فهى من الأمور المتغيرة التى يتصرف فيها ولى الأمر بحسب رؤيته لمقتضى الأحوال ! والأحوال الآن لا تسمح كما هو واضح لكل ذى عينين !

وهل نسيتم الأقليات ؟ كيف نطبق الشريعة وفى بلادنا أقليات لا تدين بالإسلام ؟

وهل نسيتم الدول « العظمى ! » وموقفها من الإسلام ؟ وبالذات موقفها من تطبيق الشريعة ؟ هل بنا طاقة - نحن المستضعفين فى الأرض - نواجه بها الدول « العظمى » ؟!

إن التفكير فى تطبيق الشريعة فى الوقت الحاضر تفكير « غير مسئول » ! ينادى به قوم لا يعيشون بعقولهم فى الواقع التاريخى المحيط بهم ! أما « العقلاء » « المسئولون » فإنهم يستنكفون أن يفكروا على هذا النحو ، ويجابهون الواقع بحكمة وروية ، ونظرة « واقعية » إلى الأمور !

* * *

كذلك تتعالى الصيحات كلما ذكر تطبيق الشريعة !

وإنها لصيحات المنهزمين فى دخيلة أنفسهم ، الذين أكل الغزو الفكرى عقولهم وأرواحهم ، وجعلهم مسخا مشوها لا يصلح لشىء !

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾؟[1] .

وقد شرحنا فى غير هذا الكتاب[2] الأسباب التى أدت بالمسلمين إلى تقبل الغزو الفكرى ، وجعلت هذا الغزو ينتشر فى أفكار « المثقفين » خاصة ، الذين ربيت عقولهم ونفوسهم ليكونوا أتباعا للغرب ، يرددون أفكاره ، ويتحدثون بلسانه ، ويرون الأمور

(١) سورة النحل [٧٦] .

(٢) انظر « واقعنا المعاصر » فصل « خط الانحراف » وفصل « آثار الانحراف » .

بمنظاره ، ويكونون هم خليفته فى الأرض الإسلامية حين تضطره الظروف أن يسحب عساكره التى أخضع بها من قبل بلاد المسلمين ، فتستمر التبعية دون أن يرى الناس العساكر الخفية التى تخضع بلادهم للنفوذ الغربي ! .

ولن نتعرض فى هذه العجالة للأسباب التى أنتجت ذلك المسخ المشوه فى الأرض الإسلامية ، ومسئولية الأمة الإسلامية نفسها عما أصابها على يد أعدائها ، حين نسيت رسالتها ونكلت عن أدائها ، إنما نتناول هنا فى إيجاز شديد – وموضوعية كذلك – أهم الأفكار التى يشوشون بها على الناس ، ليوحوا إليهم أن تطبيق الشريعة أمر لا يمكن تحقيقه اليوم ، بل لا يجوز تحقيقه حتى إن كان فى حيز الإمكان ! فضلا عن كونه أمرا لا ضرورة له ولا موجب ، طالما أن إسلامنا متحقق بنطق لا إله إلا الله ! .

وقد ناقشت بادئ ذى بدء قضية العقيدة والشريعة ، وهل هما منفصلتان فى دين الله ، بحيث نستطيع أن نكون مسلمين بمعزل عن تطبيق الشريعة ؟ وقضية حرية ولى الأمر فى تعطيل شريعة الله أو تعديلها أو إبدالها . ثم ناقشت شبهة تعارض تطبيق الشريعة مع مقتضى التطور ، وتعارض أحكام الشريعة ذاتها مع مقتضيات الحضارة الحديثة ، وشبهة عدم إمكان تطبيق الشريعة بسبب وجود الأقليات فى العالم الإسلامى ، وعدم إمكان تطبيقها بسبب موقف الدول « العظمى » من الإسلام .

وأرجو الله أن يكون فى هذه العجالة غناء ، وأن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه .

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[1] .

محمد قطب

---

(١) سورة هود [٨٨] .

المبحث الأول

هل تنفصل العقيدة عن الشريعة في دين الله

يحسب كثير من الناس – بتأثير الفكر الإرجائى من جهة ، وتأثير الغزو الفكرى من جهة أخرى – أن النطق بلا إله إلا الله محمد رسول الله ، يعطى الإنسان صفة الإسلام مدى الحياة ، ثم يدخله الجنة فى الآخرة ، مهما تكن أعماله وأفكاره ومشاعره ! ومن ثم فلا علاقة لهذا الأمر بتحكيم شريعة الله !

ويرى فريق آخر من الناس – يعتبرون أنفسهم أكثر تفقها فى دين الله – أن النطق بالشهادتين يعطى الإنسان صفة الإسلام فى الحياة الدنيا ، لاصقة به طول حياته ، أيا تكن أعماله وأفكاره ومشاعره ، وحسابه على الله فى الآخرة ، يدخله الجنة أو يدخله النار بحسب ما يعلم من سريرته سبحانه ، أما نحن فلنا الظاهر ، والظاهر هو قوله لا إله إلا الله .. ولا علاقة لهذا الأمر بالتحاكم إلى شريعة الله !

ويكفى للرد على هذا الوهم وذاك أن أبا بكر رضى الله عنه قاتل قوما ينطقون بالشهادتين ، ويؤدون الصلاة كذلك ، ولكنهم يمتنعون فقط عن أداء الزكاة . ولو كانت صفة الإسلام تظل لاصقة بالإنسان بعد نطقه بالشهادتين مهما تكن أفعاله ما جاز لأبى بكر رضى الله عنه أن يقاتل أولئك القوم ، ولا أجمع الصحابة رضوان الله عليهم على وجوب قتالهم ، بعد أن استوثقوا أن هذا هو حكم الله فى الأمر[1] .

---

(١) كان عمر –رضى الله عنه– يعارض قتالهم فى مبدأ الأمر على أساس أنهم يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ويحتج بقوله عليه الصلاة والسلام : «فإن قالوها =

إن لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، هى مدخل الناس إلى الإسلام ، ولا مدخل لهم سواها ، إليه وبمجرد نطقها يعتبرون مسلمين ..

ولكن القضية التى يغفلها - أو يغفل عنها - هؤلاء القوم وأولئك ، أن صفة الإسلام لا تلصق من ذات نفسها بالإنسان بعد نطقه بالشهادتين - مهما تكن أفعاله وأفكاره ومشاعره - إنما تحتاج إلى جهد دائب يقوم به الإنسان فى كل لحظة من لحظات عمره لتثبيتها فى مكانها ، ومنعها من أن تسقط عنه ، متمثلا هذا الجهد فى القيام بأعمال معينة من أعمال القلب والجوارح لأنها من مقتضيات الإيمان ، والامتناع عن أعمال معينة من أعمال القلب والجوارح ، لأنها من نواقض لا إله إلا الله ، التى تنقض أصل الإيمان .

وفى هذا الجهد الدائب كانت حياة الصحابة رضوان الله عليهم ، حرصا منهم على بقاء صفة الإسلام لاصقة بهم ، وخوفا منهم أن تسقط هذه الصفة عنهم . وقد وصلوا فى ذلك إلى قمم رائعة استحقوا من أجلها أن يوصفوا بأنهم خير القرون قاطبة[1] . ولكن العبرة هنا أنهم لم يعتقدوا قط أن مجرد النطق بالشهادتين يجعل صفة الإسلام تظل لاصقة بهم بغير هذا الجهد الدائب الذى يبذلونه لتثبيتها ، متمثلا ذلك الجهد فى القيام بأعمال ، والامتناع عن أعمال ..

فإذا قال قائل إن هذا الأمر متعلق بالآخرة لا بالدنيا ، وإن للآخرة حسابها الخاص ، يحكم فيه الله بما يشاء ، فيدخل الجنة - إن

= فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها » (متفق عليه) فلما بين له أبو بكر - رضى الله عنه - أنهم نكلوا عن « حقها » قال قولته المعروفة : « والله ما إن رأيت أبا بكر شرح الله صدره للقتال حتى علمت أنه الحق » .

(١) « خير القرون قرنى » أخرجه الشيخان .

شاء – قوما لم يعملوا خيرا قط ، ويخرج من النار – إن شاء – قوما لم يعملوا خيرا قط ، إنما نحن بصدد الحديث عن الحياة الدنيا ، وحكم الإنسان فيها بعد أن ينطق بالشهادتين .. فنقول لهم إنه حتى فى الحياة الدنيا فإن صفة الإسلام لا تظل لاصقة بالإنسان مدى الحياة بعد نطقه بالشهادتين إلا إذا قام بأعمال ، وامتنع عن القيام بأعمال ، بصرف النظر عما فى داخل قلبه ، مما لا يعلم حقيقته إلا الله .

ولسنا هنا – فى هذه العجالة – بصدد تفصيل الأعمال التى يجب أن يقوم بها الإنسان أو يمتنع عنها حتى تظل له صفة الإسلام فى المجتمع المسلم ، فقد تكلمنا عنها فى أكثر من كتاب[1] . إنما نحن معنيون هنا بنقطة واحدة معينة ، هى صلة لا إله إلا الله بالتحاكم إلى شريعة الله ، ومدى وثاقة هذه الصلة ، وهل يمكن أن تنفصل العقيدة عن الشريعة فى دين الله[2] .. .

وقبل أن نتحدث عن هذه القضية نود أن نشير إلى معنى معين يغفله الذين يزعمون أن النطق بالشهادتين – وحده – هو الذى يعطى صفة الإسلام فى الدنيا ، وأن التصديق والإقرار – وحدهما – يدخلان الناس الجنة فى الآخرة ، ويحتجون « بالجهنميين » الذين يخرجهم الله من النار بعد أن يقضوا فيها ما شاء الله لهم أن يقضوا ، ثم يدخلهم الجنة بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم لم يعملوا خيرا قط ..

---

(١) انظر إن شئت فصل « مفهوم لا إله إلا الله » من كتاب « مفاهيم ينبغى أن تصحح » وفصل « الصحوة الإسلامية » من كتاب « واقعنا المعاصر » .

(٢) تكلمنا عن هذه القضية كذلك فى الكتابين السابقين ، ولكن الحديث عنها فى هذا البحث له ضرورته .

ونقول – كما قلنا فى كتاب سابق[1] – إنه لا حرج على فضل الله ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾[2] ولكن هذا أيضا له شروط ! وليس مطلقا كما يظن بعض الناس ! والله سبحانه وتعالى هو الذى بين الشروط .

ولنمثل للقضية بلجان الرأفة فى الاختبارات – ولله المثل الأعلى – فلجنة الرأفة تنظر فى أوراق الذين دخلوا الاختبار ثم رسبوا فيه . فإذا نجح منهم من نجح على يد لجنة الرأفة فذلك لا ينفى عنهم أولا أنهم كانوا راسبين بحسب المقاييس المعتمدة للنجاح . ثم إنهم ثانيا لابد أن يكونوا قد حضروا الاختبار ثم رسبوا ، لأن عمل اللجنة لا يتناول الذين طردوا من الاختبار بسبب الغش – مثلاً – أو بأى سبب آخر . كذلك رحمة الله – ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[3] – تشمل الذين قصروا فى أداء الأعمال **وهم مؤمنون** ، ولكنها لا تشمل الذين طردوا من رحمة الله بسبب الشرك ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[4] .

والآن فلننظر فى الشرك الذى يخرج الإنسان من دائرة المغفرة ويحجب عنه الجنة .

يبين الله لنا فى كتابه المنزل وفى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أن هذا الشرك ثلاثة أنواع رئيسية ، كل واحد منها شرك ، وكل منها ناقض للا إله إلا الله :

---

(١) « مفاهيم ينبغى أن تصحح » فصل « مفهوم لا إله إلا الله » .
(٢) سورة الإنسان [٣١] .
(٣) سورة الروم [٢٧] .
(٤) سورة النساء [١١٦] .

الأول : يتعلق بالاعتقاد . وهو اعتقاد وجود آلهة تشارك الله سبحانه وتعالى فى النفع والضر ، أو الإحياء والإماتة أو تدبير الأمر .. أو وجود شفعاء يملكون الشفاعة عند الله فيغيرون حكمه فى السموات أو فى الأرض .

الثانى : يتعلق بالعبادة . وهو توجيه أى مظهر من مظاهر العبادة لغير الله – معه أو من دونه – كالدعاء أو الإستغاثة أو النذر أو الذبح .. الخ .

والثالث : يتعلق بالتحليل والتحريم (أى التشريع) بغير ما أنزل الله .

ولما كنا فى هذه العجالة معنيين بالنوع الثالث من الشرك – وهو شرك التشريع بغير ما أنزل الله – فسنقصر الحديث عليه ، متخذين الأدلة عليه من كتاب الله ، ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن أقوال العلماء .

بين الله فى كتابه المنزل أن الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم قد أرسلوا للناس لا ليدعوهم فقط إلى الاعتقاد بأن الله واحد لا شريك له ، ولكن ليبين لهم كذلك أن العبادة والنسك يجب أن توجه لله وحده بلا شريك ، ثم ليبلغهم تعليمات من ربهم ينظمون بمقتضاها حياتهم وتعاملاتهم بعضهم مع بعض « ليقوم الناس بالقسط » :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾[1] .

وبين سبحانه أن هذه الثلاثة : الاعتقاد والشعائر والشرائع هى مقتضى قول كل رسول لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ

(١) سورة الحديد [٢٥] .

غَيْرُهُۥٓ﴾[1] وأن نقض أى واحد من هذه الثلاثة – أو إشراك غير الله فيها – ناقض للإيمان .

وقال عن شرك التشريع الذى نحن بصدده فى هذا المبحث :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[2] .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ ﴾[3] .

كما قال عن اليهود والنصارى أنه تعالى ألزمهم بالحكم بشريعته ، وأن مخالفتهم لأمره تخرجهم من الإيمان :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[4] .

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى

---

(١) سورة هود [٥٠] .

(٢) سورة لقمان [٢١] .

(٣) سورة النحل [٣٥] .

(٥) سورة المائدة [٤٤] .

وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى فى بيان أن التشريع بغير ما أنزل الله شرك مخرج من الإيمان مخاطبا المشركين أو منددا بهم :

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾[2] .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ؟ ﴾[3] .

وقال عن اليهود والنصارى كذلك فى هذا الشأن :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾[4] .

فلما أنكر ذلك عدى بن حاتم فى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : يا رسول الله ما عبدوهم ! بيّن له عليه الصلاة والسلام أن اتخاذهم أربابا هو نتيجة اتباعهم فيما شرعوا بغير ما أنزل الله . قال عليه الصلاة والسلام : « ألم يحلوا لهم الحرام ويحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم ؟ فذلك عبادتهم إياهم »[5] .

ولما مكّن الله لدينه فى الأرض نجم فى المجتمع فريق ثالث غير المؤمنين والكافرين الصرحاء ، وهم المنافقون – وهم فى الدرك الأسفل

---

(١) سورة المائدة [٤٦ – ٤٧] .

(٢) سورة الأعراف [٣] .

(٣) سورة الشورى [٢١] .

(٤) سورة التوبة [٣١] .

(٥) رواه الترمذى .

من النار – أولئك الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر . وقد تركز كفرهم ونفاقهم فى قضية التشريع . فبين الله أن إعراضهم عن شريعة الله وبحثهم عن شريعة أخرى ، ينفى عنهم الإيمان جملة ، وأنهم لا يؤمنون حتى ينبذوا تلك الشرائع التى يتوجهون إليها ، ويعودوا إلى شريعة الله وحدها دون غيرها من الشرائع :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[1] إلى قوله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[2] .

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[3] .

* * *

فإذا كانت هذه الآيات – وأمثالها فى القرآن كثير – قد بينت صلة الشريعة بالعقيدة ، وأنهما لا ينفصلان ، وأن التشريع بغير ما أنزل الله شرك مخرج من الملة ، فقد بينت أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الصلة الوثيقة حين بيّن عليه الصلاة والسلام ما يكون من

(١) سورة النساء [٦٠] .

(٢) سورة النساء [٦٥] .

(٣) سورة النور [٤٧–٤٨] .

أمر الناس حين تخالف شريعة الله ، ومن باب أولى حين تنحى شريعة الله ويُحكَمون بشرع غير شرع الله :

« ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره . ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن . ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن . ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[1] .

« إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون . فمن كره فقد برئ ، ومن أنكر فقد سلم . ولكن من رضى وتابع »[2] .

وخلاصة الحديثين أن الرضى بشرع غير شرع الله مخرج من الملة كالتشريع سواء .

* * *

أما أقوال العلماء فنختار منها قول ابن كثير رحمه الله فى تفسيره للآية الكريمة : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[3] .

« ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير ، الناهى عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما

(١) أخرجه مسلم .
(٢) أخرجه مسلم .
(٣) سورة المائدة [٥٠] .

كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأهوائهم وآرائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذى وضع لهم الياسق ، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام اقتبسها من شرائع شتى : من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها بمجرد نظره وهواه ، فصارت فى بنيه شرعا متبعا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير »[1] .

ويقول « ابن تيمية » رحمه الله :

« وبما ذكرته فى مسمى الشريعة والحكم الشرعى يتبين أنه ليس للإنسان أن يخرج عن الشريعة فى شيء من أموره ، بل كل ما يصلح له فهو فى الشرع من أصوله وفروعه وأحواله وأعماله وسياسته ومعاملته وغير ذلك ، والحمد لله رب العالمين ... وحقيقة الشريعة : اتباع الرسل والدخول تحت طاعتهم ، كما أن الخروج عنها خروج عن طاعة الرسل . وطاعة الرسل هى دين الله الذى أمر بالقتال عليه ، وقال : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ ... فعلى كل من الرعاة والرعية والرؤوس والمرؤوسين أن يطيع كل منهم الله ورسوله فى حاله ، ويلتزم شريعة الله التى شرعها له »[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٢، ص ٦٧ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، ج ١٩ ص ٣٠٩ .

ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله :

« ولهم شبهة أخرى ، يقولون إن النبى صلى الله عليه وسلم أنكر على أسامة قتل من قال لا إله إلا الله، وقال: « أقتلته بعد ما قال :لا إله إلا الله ؟ وكذلك قوله : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » وأحاديث أخرى فى الكف عمن قالها . ومراد هؤلاء الجهلة أن من قالها لا يكفر ولا يقتل ولو فعل ما فعل . فيقال لهؤلاء.. الجهال : معلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون لا إله إلا الله . وأن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قاتلوا بنى حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويصلون ويَدَّعون الإسلام وكذلك الذين حرقهم على بن أبى طالب . وهؤلاء الجهلة مقرّون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال لا إله إلا الله ، وأن من جحد شيئاً من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها ، فكيف لا تنفعه إذا جحد شيئا من الفروع وتنفعه إذا جحد التوحيد الذى هو أصل دين الرسل ورأسه ؟ .. فلم تنفعهم لا إله إلا الله ولا كثرة العبادة ولا ادعاء الإسلام لمّا ظهر منهم مخالفة الشريعة »[1] .

وعلى الرغم من وضوح القضية فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأقوال العلماء ، فإن الأمر يختلط على بعض الناس حين يجدون فى كتب الفقه أن من لم يحكم بما أنزل الله لا يكفر إلا إذا كان جاحدا ، ويجدون ابن عباس رضى الله عنه يقول : أنه ليس الكفر الذى تذهبون إليه . إنه ليس كفراً ينقل عن الملة . كفر دون كفر .. .

---

(١) كتاب « الجامع الفريد » الطبعة الثانية ، مقتطفات من ص ٢٣٢ و ص ٢٣٣ .

يختلط الأمر عليهم فيحسبون قضية التشريع بغير ما أنزل الله ، أو الرضى بشرع غير شرع الله داخلة فى هذا الحكم : كفر دون كفر . كفر لا يخرج من الملة .

والذى يقوله الفقهاء عن الحكم بغير ما أنزل الله صحيح ولا شك . فليس كل من لم يحكم بما أنزل الله يعتبر كافراً. فقد يكون متأولا . وقد يكون جاهلا بحكم الله فى قضية بعينها . وقد يكون مدفوعا بشهوة معينة كالقاضى المرتشى الذى يخالف حكم الله فى القضية المعروضة عليه بتأثير الرشوة وهو عالم بما يفعل ، فيكون عاصيا فاسقا ولا يكفر .

فكيف اعتبر مؤمنا وهو لم يحكم بما أنزل الله ..؟

السبب أنه – مع مخالفته لحكم الله – لم يجعل مخالفته شرعا يحكّمه بدلا من شرع الله ، ولم يقل إن حكمه هذا بديل يضاهى حكم الله أو يفضّل على حكم الله . إنما موقفه كالسارق والزانى يخالف فى العمل ، ولكنه لا يغيّر فى الشرع المنزل ، ولا يضع بديلا من عند نفسه لشرع الله .

أما حين يشرع بغير ما أنزل الله فالأمر مختلف تمام الاختلاف .. فهو عندئذ يضع من عند نفسه تشريعا يحل فيه ويحرم بغير ما أنزل الله ، ثم يضاهى به شرع الله ، أو يفضّله على شرع الله . وذلك – بإجماع الفقهاء – شرك أكبر مخرج من الملة ، لأنه يتعارض مع الإقرار بما جاء من عند الله ، وهو المقتضى المباشر – بل المعنى المباشر – للا إله إلا الله ..

* * *

كيف نزعم لأنفسنا أننا آمنا بأنه لا إله إلا الله – أى لا معبود إلا الله ، ولا حاكم إلا الله – إذا كنا نقول – بلسان الحال أو بلسان

المقال – إنك يا رب قد قلت إن الربا حرام ، أما نحن فنقول إنه مدار الحياة الاقتصادية المعاصرة ، لا يقوم الاقتصاد إلا به[1] ، ولذلك فنحن نقره ونتداوله ، ونجعله هو الأصل فى تداول المال ! وإنك يا رب قد قلت إن الزنا حرام ، وحددت له عقوبة معينة فى كتابك المنزل ، وفى سنة رسولك صلى الله عليه وسلم . أما نحن فنرى أنه ليس هناك جريمة تستحق العقاب أصلا إذا تم الأمر برضى الطرفين ولم تكن المرأة قاصرا. وإذا وقعت – من وجهة نظرنا – جريمة فعقوبتها عندنا أمر أخر غير ما قررت ! وإنك قد قلت يارب إن عقوبة السرقة قطع اليد . أما نحن فنرى أن هذه عقوبة وحشية بربرية ، إنما عقوبة السرقة عندنا هى السجن ، وهى عقوبة مهذبة تليق بإنسان القرن العشرين ! وإنك يارب قد حرمت الخلوة بالأجنبية ، وحرمت الاختلاط بغير محرم ، وحرمت على المرأة السفور وإبداء زينتها لغير محارمها . أما نحن فنرى هذه كلها أمورا لا بأس بها ولا حرج فيها ولا ضرر منها ، بل نراها من ضرورات الحياة المعاصرة ، و « حقوقا » نالتها المرأة « المتحررة » لا سبيل إلى الرجوع عنها ، لكى لا نصبح رجعيين متأخرين ..

كيف نزعم لأنفسنا أننا آمنا بأنه لا إله إلا الله – أى لا معبود ولا حاكم إلا الله – إذا قلنا ذلك ، ومئات من أمثاله ، بلسان الحال أو بلسان المقال ؟

وماذا بقى من لا إله إلا الله إذا فعلنا ذلك ؟

ماذا بقى سوى كلمة ذاهبة فى الهواء ، لا رصيد لها من الواقع ، ولا قيمة لها فى واقع الحياة ؟

---

(١) الذين يقولون هذا هم المرابون اليهود ، ومن عميت قلوبهم من « الأميين » أما المستبصرون من الأميين أنفسهم فيقولون إن النتيجة الحتمية للربا هى تكدس الثروة فى يد فئة قليلة من الناس تزداد قلة بمرور الزمن ، وازدياد الفقر فى فئة كبيرة من الناس يتزايد عددها على الدوام . انظر إن شئت تقرير المستشار الألمانى « شاخت » عن الربا .

إن الإقرار بألوهية الله ، فضلا عن تفرده سبحانه وتعالى بالألوهية - وهو معنى لا إله إلا الله - أمر أضخم بكثير من مجرد أن نوقن فى داخل أنفسنا ونقر بألسنتنا أن الله هو الخالق . وأن الله هو الرازق . وأن الله هو المدبر وأن الله هو المسيطر. وأن الله بيده ملكوت كل شيء .. وهو ما يريد المرجئة أن يحصروا فيه معنى لا إله إلا الله.. فقد كان العرب فى جاهليتهم يقرون بهذا كله ، ومع ذلك لم يعتبرهم الله مؤمنين !

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾(1) .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾(2) .

﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ؟! ﴾(3) .

فما الذى منعهم - وهم يقرون بهذا كله - أن يكونوا مؤمنين ؟ وأى شيء جعلهم فى حكم الله مشركين ؟

أمران رئيسيان : عبادة غير الله ، والتحليل والتحريم (أى التشريع) بغير ما أنزل الله :

---

(1) سورة لقمان [25] .

(2) سورة الزخرف [87] .

(3) سورة المؤمنون [84-89] .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾[1] .

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ[2] إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾[3] .

* * *

ويعلم الله أننا ما قصدنا بهذا البيان إصدار حكم على أحدٍ من أعيان الناس . فتلك قضية بينا من قبل فى كتابين سابقين[4] أننا لا نتعرض لها فى هذه المرحلة من حياة الأمة . إنما نحن فى معرض البيان الواجب ، الذى هو أمانة فى عنق كل من علم شيئا من حقيقة هذا الدين .. فواجبه أن يبين للناس ما جهلوه من شأن هذه الحقيقة لعلهم يغيّرون ما بأنفسهم فيغير الله لهم :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[5] .

ولقد نسيت الأمة فى حقبتها الأخيرة كثيرا من حقائق الإسلام التى كانت فى حسها بديهيات لا تقبل النقاش .

وكان من بين ما نسيته هذه القضية الخطيرة ، وهى وجوب الحكم بما أنزل الله عقيدةً لا يكون المسلم مسلما إذا تخلى عنها ، وأن

---

(١) سورة النحل [٣٥] .

(٢) إله خالق رازق مدبر تقرّون بوجوده ولا تتبعون شريعته ، وإله مزعوم يشرع لكم فتطيعونه فى التشريع .

(٣) سورة النحل [٥١] .

(٤) انظر « واقعنا المعاصر » و « مفاهيم ينبغى أن تصحح » .

(٥) سورة الرعد [١١] .

التشريع بغير ما أنزل الله ، والرضى بشرع غير شرع الله شرك مخرج من الملة .

ولئن كان الفكر الإرجائى قد مهد السبيل فى الماضى لزحزحة الأمة عن كثير من الأعمال الواجبة - أو فى القليل برر لها تقاعسها عن تلك الأعمال - على أساس أن العمل ليس داخلا فى مسمى الإيمان ، وأن الإيمان يتحقق كاملا بالتصديق والإقرار فحسب ..

فإن الغزو الصليبى - سواء العسكرى أو الفكرى - قد دفع الأمة دفعة خطيرة وراء آخر الحواجز التى كانت قد وقفت عندها على الرغم من كل تقاعسها وكل انحرافها .. فأخرجها من شريعة الله ، وهو يزين لها عملها ، ويمد لها فى الغىّ ، ويوهمها أنها ما زالت فى دائرة الإيمان . . .

ولقد قاوم المسلمون الغزو العسكرى والغزو الفكرى بما كان قد بقى فيهم من طاقة .. ولكن الخواء الذى كانت تعانيه الأمة من جراء انحرافاتها وأمراضها جعل هذه المقاومة أضعف من أن تقف للغزو الكاسح ، فاستتب الأمر للغزاة ، وتم لهم ما أرادوه من صرف الأمة عن الإسلام .. .

ولقد كان لهم من وراء تنحية شريعة الله عن الحكم مآرب عدة .. وكانوا يعلمون أنه بعد أن تنقض العروة الأولى - عروة الحكم - ستنقض بقية العرى واحدة إثر أخرى كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لتنقضن عرى هذا الدين عروة عروة ، كلما نقضت عروة استمسك الناس بالتى بعدها ، فأولهن نقضا الحكم ، وأخرهن نقضا الصلاة »[1] .

---

(١) رواه أحمد .

كانوا يريدون أن تعمل حركة التنصير فى العالم الإسلامى وهى آمنة مطمئنة ، لتفتن من تستطيع فتنته عن دينه . ولن تجد هذه الحركة مجالا لو بقيت الشريعة قائمة ، ونُفِّذ حد الردة على المتنصر الذى يرتد عن الإسلام .

وكانوا يريدون أن تشيع الفاحشة فى المجتمع الإسلامى لتنحل أخلاقه ويسلس قياده للمستعمر ، ولم يكونوا ليستطيعوا - والشريعة قائمة - أن يفتحوا بيوتا رسمية للبغاء ، تحميها الدولة « المسلمة ! » بتشريعاتها وتنظيماتها وشرطتها ! ولا أن يفتحوا الحانات لتسقى الناس الخمر علانية باسم « المشروبات الروحية »[1]!! ولا أن يفتحوا المراقص للساقطات اللواتى أطلق عليهن فيما بعد لقب « الفنانات ! » لتلهية الناس عن صلاتهم وصيامهم ، ودنياهم وآخرتهم ، باسم الفن والحضارة والتقدم !

وبقى المؤمنون ينكرون ذلك كله بقلوبهم ، وقد عجزوا عن إنكاره بأيديهم ويئسوا من إنكاره بألسنتهم ، ولكن حتى هذا القدر الذى قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه « أضعف الإيمان » « وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » لم يكن مأمونا عند القائمين بالغزو الصليبى ، فقد يشتد يوما حتى يصبح « جهادا » حقيقيا كاسحا هو أشد ما يرهبونه من هذا الدين . ومن ثم سعى الغزو الفكرى إلى تثبيت تلك الأوضاع على أنها هى الأصل الذى ينبغى أنْ يتبع ، وأن العدول عنه - بالعودة إلى تحكيم شريعة الله - هو الرجعية التى ينبغى أن يبرأ منها المتحضرون .

---

(١) يطلق الأوربيون على الخمر اسم « المشروبات الكحولية Spiritual » ولكن المترجمين الخبثاء ترجموا كلمة Spiritual بالروحية ، مستغلين أن الكلمة الأوربية يمكن أن تؤدى كلا المعنيين : الروحية والكحولية . والتضليل واضح فى الترجمة العربية .

واستعين على ذلك بكل وسائل الإعلام المتاحة من كتاب وصحيفة وقصة ومسرح وسينما وإذاعة (وتليفزيون فيما بعد) كما استعين بمناهج التعليم التى تصور الإسلام وشريعته جمودا وتأخرا ورجعية ، وتصور الأوضاع القائمة فى أوربا - بجميع جوانبها ومجالاتها - على أنها هى الحضارة والرفعة والتقدم ، وتخرج أجيالا وراء أجيال تعرف شيئا عن أوربا[1] ، ولا تعرف عن الإسلام إلا ما يلقى فى روعها من الشبهات !

واستعين فوق ذلك بالفكر الإرجائى الذى يقول إن الإيمان هو التصديق والإقرار ، وليس العمل داخلا فى مسمى الإيمان . كما استعين « بعلماء » من علماء الدين ليؤكدوا هذه المعانى الإرجائية فى نفوس الناس ، بعضهم « طيبون » ، تستغل طيبتهم دون وعى منهم ، وبعضهم « محترفون » يضللون الناس على علم .

* * *

يا حسرة على العباد !

إن تصور أمة محمد صلى الله عليه وسلم تتحاكم إلى غير شريعة الله لهو أمر مذهل ، وأمر بشع .. لا يخفف من بشاعته عموم البلوى ، ولا ثقلة الأمر الواقع !

كيف تخلت هذه الأمة عن رسالتها ، وعن تميزها الذى ميزها الله به ؟

هل أخرج الله هذه الأمة لتكون فى ذيل القافلة تلهث وراء الركب ؟!

---

(١) لم يكن لديهم معرفة حقيقية عن أوربا . فقد كان فى الحضارة الغربية إيجابيات - رغم انحرافاتها الجوهرية - ولم يكن مقصوداً تعليم المسلمين إيجابيات أوربا ، ولا كيف يتخذونها من أجل نهضتهم ، إنما كان المقصود تعريفهم - جيداً - بالانحلال الخلقى والإلحاد ، ليأكل فى جسد الأمة الإسلامية .

وهل أخرجها لتنبهم شخصيتها وتتميع ، وتصبح صورة مقلدة بل مشوهة من الجاهلية ؟!

ألم يخرجها لتكون قائدة ورائدة وشاهدة على كل البشرية ؟!

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[1] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[2] .

وهل تستطيع أن تحقق شيئا من ذلك حين تتخلى عن شريعة الله وتنتهج شرائع الجاهلية ؟

قد يخطر فى بال قوم أن الذى ينقصنا من أجل تحقيق وجودنا هو الطائرات والصواريخ، والآلات والمصانع، والعلم والتكنولوجيا ..

وكل ذلك ينقصنا حقا ..

ودع عنك الأن أنه ما صار ينقصنا إلا حين تخلفنا عن حقيقة لا إله إلا الله . وأننا حين كنا ملتزمين حقا بمقتضيات لا إله إلا الله كنا ممكنين فى الأرض، سابقين فى كل مجالات الحياة ، لأن الله جعل كل أسباب الخير الحقيقى فى مقتضيات لا إله إلا الله ، ويسرها لمن يلتزم حقا بلا إله إلا الله .

دع عنك الآن هذا ، ولنفترض - مع الخيال الجامح - أننا امتلكنا هذه الأدوات كلها كما تمتلكها « الدول العظمى ! » سواء بسواء ، ثم لم نطبق شريعة الله .. فهل نزيد فى ميزان الله على أن نكون

---

(١) سورة آل عمران [١١٠] .

(٢) سورة البقرة [١٤٣] .

أمة جاهلية يمكن الله لها فترة من الوقت ثم يكون مصيرها الدمار فى الأرض والعذاب الأليم يوم الحساب !!

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1] .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2] .

إنما أخرج الله هذه الأمة لأمر أعظم من هذا بكثير ..

أخرجها لتكون هى النموذج الذى تحتذيه البشرية ، لتهتدى إلى ربها ، وتطبق منهجه فى الأرض ، فتنال خير الدنيا وخير الآخرة ، وتنال رضوان الله ..

وذات يوم حققت الأمة ذلك النموذج الفذ فى عالم الواقع ..

ولن تعود إلى التمكين والقوة حتى تعود إلى السبب الذى مكنها من قبل :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي

---

(١) سورة الأنعام [٤٤-٤٥] .

(٢) سورة هود [١٥-١٦] .

ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ ﴾[1] .

ولن يعبدوه حق عبادته ، عبادة خالية من الشرك ، حتى يلتزموا بتطبيق شريعة الله :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾[2]

---

(١) سورة النور [٥٥] .

(٢) سورة النساء [٦٥] .

المبحث الثاني
هل لولي الأمر أن يتصرف في أحكام الشريعة بحسب الأحوال

يقول الذين يتلمسون المعاذير والحجج ليتهربوا من الالتزام بتطبيق شريعة الله ، إن لولى الأمر أن يتصرف فى أحكام الشريعة حسب الأحوال .. فقد أوقف عمر حد السرقة عام الرمادة ، وأبطل سهم المؤلفة قلوبهم من مصارف الزكاة .. فإذا جاز هذا لعمر رضى الله عنه فلماذا لا يجوز للحكام اليوم ، وقد تبدلت الأمور تبدلا حادا ، يستدعى إعادة النظر فيما يمكن وما لا يمكن، وما يجوز وما لا يجوز ؟!

واتهام عمر رضى الله عنه بالتصرف من عند نفسه فى أحكام الشريعة حسب أحوال عصره أمر خطير لا يجوز أن يترك بغير تفنيد وتحقيق .

فعمر رضى الله عنه لم يكن حاكما عسكريا يتصرف فى الأمور بما تمليه عليه أهواؤه ، ولم يكن جباراً فى الأرض كالفراعين ، يقول : ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[1] .

والصحابة رضوان الله عليهم من جانب آخر لم يكونوا ليسكتوا على تغيير شرع الله أو إبطاله مهما يكن الشخص الذى قام بهذا التصرف ، عمر أو غير عمر .. ولنذكر جيدا أن عمر رضى الله عنه – برغم كل المهابة التى أضفاها الله عليه ، وجعل من مظاهرها الجسم الطويل القوى والصوت الجهورى – قام يوما على المنبر فخطب الناس

---

(١) سورة غافر [٢٩] .

فقال : أيها الناس اسمعوا وأطيعوا ! فقال له سلمان الفارسى رضى الله عنه : لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة ! فقال عمر رضى الله عنه : ولمه ؟ قال : حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذى ائتزت به ، وأنت رجل طوال لا يكفيك برد واحد كما نال بقية المسلمين ! فلما بين له عمر رضى الله عنه أن البرد الذى ائتزر به هو برد ابنه عبد الله ، قال سلمان : الآن مُر ! نسمع ونطع ! .

ومن ثم فلا عمر رضى الله عنه يتصور منه مخالفة شرع الله ، ولا الصحابة رضوان الله عليهم يتصور منهم السكوت على المخالفة ولو كانت من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

والحق أن الذين يتلمسون المعاذير لا يسمون عمل عمر مخالفة ، إنما يسمونه « تصرفا » ليبنوا عليه قاعدة تهفو إليها أفئدتهم لتحللهم من الالتزام بشرع الله ، هى أن لولى الأمر أن يتصرف فى أحكام الشريعة بما يراه ، بحسب الأحوال ! وبشىء من « البحبحة » يحلّون أولياء الأمور اليوم من الشريعة بأكملها ، بحجة عدم مناسبة الأحوال !

* * *

فلننظر فى عمل عمر رضى الله عنه : هل هو « إبطال » للشريعة أو « تصرف » فيها ؟ أم هو عين الالتزام بأحكام الشريعة مع الاجتهاد فى تحديد الصورة الصحيحة لتطبيقها ؟

أوقف عمر حد السرقة عام الرمادة ، فما دلالة هذا التصرف ؟

فلنرجع إلى مقاصد الشريعة .

إن الإسلام لا يبدأ بتقرير العقوبة ولا بتطبيقها . إنما يسعى أولا لسد منافذ الجريمة حتى لا تقع ابتداء . فإذا وقعت نظر فى كل حالة ليضمن أن فاعلها غير معذور ، فيقيم عليه الحد وقتئذ وقد ضمن ألا عذر له فى ارتكاب الجريمة . فإذا قامت الشبهة فإنها تدرأ الحد ..

هذه هى الشريعة . وهذا هو الذى فعله عمر على وجه التحديد !

رأى أن شبهة الجوع الملجىء إلى السرقة قائمة ، فدرأ الحد بالشبهة ، ولم يقم الحد حتى يطمئن أن مرتكب السرقة غير معذور فى ارتكابها .. فهل غيّر عمر شرع الله أو أبطل تنفيذه ؟ أم إنه كان منفذا دقيقا ملتزما فى تطبيقه كل الالتزام ؟

أما الاجتهاد الآخر الذى قام به عمر رضى الله عنه فهو إبطال سهم المؤلفة قلوبهم من مصارف الزكاة .

تقول الآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1] .

وقال عمر رضى الله عنه : لقد أعزّ الله الإسلام ، فلم تعد هناك حاجة لتأليف القلوب .

فهل أبطل عمر رضى الله عنه شرع الله ؟ أم إنه نظر فى دواعى التطبيق ، فوجد – باجتهاده – أن الداعى لتأليف القلوب لم يعد قائما بعد أن أعز الله الإسلام ، فلم يعد لهذا السهم باب للإنفاق فيه فى تلك الحالة ، وهى عزة الإسلام ، ودخول الناس فيه طواعية أو خضوعا للغالب المنتصر ، وفى كلتا الحالتين لا يحتاج الأمر إلى تأليف القلوب ، فالذى دخل طواعية مؤمن صادق قد استقر الإيمان فى قلبه ، والذى دخل خضوعا للغالب المنتصر قد وجد السبب الذى يدعوه للإسلام فدخل فيه استجابة لذلك السبب ، وهو كافٍ عنده للدخول فيه !

---

(١) التوبة : [٦٠] .

لـو قـال عمر : إن هناك من نحتاج إلى تأليف قلبه للإسلام ، لأن الإسلام لم يتمكن فى الأرض بعد ، ولكنى أرى مع ذلك ألا أنفق هذا السهم من الزكاة لتأليف القلوب .. لو قال ذلك – وحاشا لعمر المؤمن التقى أن يقوله – لوقعت عندئذ المخالفة التى لا تقبل من عمر ولا غير عمر ، لأنها تكون عندئذ تغييرا وتبديلا فى شرع الله .

أما قيام حالة لا يكون النص منطبقا فيها ، فلا يطبق النص لعدم انطباقه على الحالة القائمة ، فتصرف أبعد ما يكون عن التغيير أو التبديل فى شرع الله .

ونأخذ مثالًا من حالة أخرى للتوضيح .

يقول يحيى بن سعيد : بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها ، فطلبت فقراء أعطيها لهم فلم أجد ، فقد أغنى عمر ابن عبد العزيز الناس . فاشتريت بها رقيقا فأعتقتهم .

فهل نقول إن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أبطل الشريعة أو عدل فيها لأنه لم ينفق سهم الفقراء من أموال الزكاة ؟ أم نقول إنه وجدت حالة لم ينطبق فيها النص فلم يطبق ؟

وكذلك تصرف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، سواء فى عدم تطبيق حد السرقة عام الرمادة ، أو وقف إنفاق السهم الخاص بالمؤلفة قلوبهم من أموال الزكاة .

فأين من هذا دعوة الداعين إلى إعطاء «أولياء الأمور» حق إبطال الشريعة بكاملها والاستعاضة عنها بالشرائع الجاهلية .. بحجة عدم مناسبة الأحوال ؟!

* * *

إن « ولى الأمر » فى الإسلام يكون شرط توليته ، الذى يعطيه شرعية تولى الأمر ، والذى بدونه لا تكون له شرعية ، هذا الشرط هو تطبيق شريعة الله ، فكيف يكون من حقه إبطال شرط توليته ومصدر شرعيته ؟!

وولى الأمر له على رعيته حق السمع والطاعة ، ولكن فى حدود طاعته هو لله ورسوله ، فإن عصى الله ورسوله – بتعطيل شىء من شرع الله – فلا طاعة له على الناس .

يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[1] .

وظاهر من البناء اللغوى للآية أن الطاعة لله مطلقة ، كذلك الطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن ليست كذلك الطاعة لأولى الأمر .. ولو قال تعالى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأطيعوا أولى الأمر منكم لوجبت طاعتهم مطلقا كطاعة الله وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم . ولكن الله جل شأنه لم يقل ذلك ، وإنما عطف طاعة أولى الأمر على طاعة الله والرسول بدون تكرار الأمر « أطيعوا » ، لتظل طاعتهم مقرونة دائما بحدود ما أنزل الله . ويؤكد ذلك عَجُزُ الآية الذى يبين المرجع فى حالة التنازع وهو الله والرسول فحسب .

وهكذا فهم الخليفة الأول رضى الله عنه حين قال للأمة : أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم .

---

(١) سورة النساء [٥٩] .

فإذا كانت هذه هى حدود الأمر فى الإسلام ، فكيف يتصور أحد أن يكون لولى الأمر حق مخالفة الله ورسوله والله يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[1] .

ثم كيف يتصور أحد أنه حين يخرج ولى الأمر عن طاعة الله ورسوله بإبطال شريعة الله ، يكون له حق السمع والطاعة على رعيته ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقرر أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ؟

« لا طاعة فى معصية »[2] .

« إنما الطاعة فى المعروف »[3] .

* * *

كلا ! ليس لولى الأمر أن يتصرف فى الشريعة بالإبطال أو التعديل أو الاستبدال ، لأن هذا الحق ليس لأحد على الإطلاق ، لا الحاكم ولا المحكوم .

ولا يوجد سبب واحد فى الأرض يبرر لولى الأمر أن يفعل ذلك . لا الله أذن له ، ولا السوابق التى يتصيدونها من تصرفات عمر رضى الله عنه تؤيدهم فيما يذهبون إليه .

ومحك الإيمان ، الذى بينه الله فى كتابه المنزل هو التحاكم إلى شرع الله أو الإعراض عنه :

---

(١) سورة الأحزاب [٣٦] .

(٢) أخرجه الشيخان .

(٣) أخرجه الشيخان .

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1] .

فهؤلاء يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ ﴾ ثم يزيدون على ذلك فيزعمون أنهم مطيعون لله ورسوله والله يقول عنهم ﴿ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾فينفى عنهم ما زعموه من دعوى الإيمان ، ويبين أن السبب فى نفى الإيمان عنهم أنهم إذا دعوا إلى شريعة الله أعرضوا عنها ، إلا حين يكون لهم مصلحة ذاتية فى تطبيقها ! ويبين تعالى موقف المؤمنين الحقيقيين إذا دعوا إلى شريعة الله فإنهم على الفور يقولون سمعنا وأطعنا ، بصرف النظر عما يصيب ذواتهم من تطبيقها ، إنما هى الطاعة المطلقة لله ورسوله ، هى صفة المؤمنين ، وهى سبيل الفلاح فى الدنيا والآخرة .

* * *

والذين يتصيدون الحجج والمعاذير يقولون : كيف نقيم حد السرقة والناس جياع ؟ أليس علينا أن نسد جوعتهم أولا ؟ فلنصلح أحوالنا الاقتصادية أولا ثم نشرع بعد ذلك فى تطبيق الشريعة !

وهى مجرد مراوغة لا تنطلى على أحد .

---

(١) سورة النور [٤٧-٥١] .

فلنطبق الشريعة الآن فى هذه اللحظة ، ولا خوف من وقوع الظلم على أحد فى ظل شريعة الله !

إننا حين نطبق الشريعة الآن فى هذه اللحظة فلن نطبق حد السرقة على الجائع الذى يسرق ليأكل ، لأن شبهة الجوع الملجىء إلى السرقة تدرأ عنه الحد .. فلا نحتاج إذن إلى تعطيل تطبيق أحكام الشريعة حتى نصلح الأحوال الاقتصادية ، لأنه لا تطبيق الشريعة سيعطل إصلاح الأحوال الاقتصادية (بل العكس هو الصحيح) ولا سيقع الظلم على أحد من تطبيق الشريعة لأن الله لا يظلم أحدا كما أخبر سبحانه عن نفسه فى كتابه المنزل ، وكما روى عنه رسوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث القدسى : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا »[1] .

ويقول آخرون : كيف نقطع يد السارق الذى سرق ليأكل ، ونترك سارق الملايين ؟! لا يجوز تطبيق الشريعة فى الأحوال الراهنة !!

كأنما تطبيق الشريعة سيؤدى إلى هذا أو ذاك !!

فأما السارق الذى سرق ليأكل فلن يقام عليه الحد كما بينا ، لأن شريعة الله تقضى بعدم إقامة الحد عليه . وأما سارق الملايين فأى نص فى شريعة الله يحميه ؟!

وأما إذا تقاعست الأمة عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وخافت سطوة ذوى السطوة ، فأصبح الحال كما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم حال الهالكين : إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، فهى من جهةٍ تحمل وزر نفسها فى الدنيا وفى الآخرة ، ومن جهة أخرى فلن يوجد نظام يحميها من سطوة ذوى السطوة ، فتلجأ إليه بعيدا عن شريعة الله !

---

(١) أخرجه مسلم .

إن الذين يتلمسون الحجج والمعاذير ليتهربوا من تطبيق شريعة الله يقولون : الديمقراطية ! الديمقراطية ! أو يقولون : الاشتراكية ! الاشتراكية ! فكم من ألوف الملايين سرقت من دماء الشعوب « الإسلامية ! » تحت ظل الديمقراطية المزيفة وتحت ظل الاشتراكية ؟! وكيف اكتنزت طبقات لا أصول لها ، وجاعت الملايين ؟ وكيف صارت أقوات الشعب وضروراته تباع فى السوق السوداء ، وصارت القروض تأتى من كل مكان فلا تنفق فى مواضعها ، ولا يستفيد منها الصالح العام إلا القليل بينما تتحمل الملايين من أقواتها الضرورية فوائد القروض ؟!

كلا ! إننا إذا نادينا بتعطيل الشريعة الإسلامية من أجل حماية الملايين ، فتلك حجة داحضة ، ولن يحمى حقوق الملايين شيء حماية الشريعة الإسلامية لها ، بشرط أن تقوم الأمة بتبعاتها ، فتراقب حكامها ، وتأطرهم على الحق أطرا كما وجهها رسولها الكريم صلى الله عليه وسلم .. لأن ذلك من مقتضيات لا إله إلا الله :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[1] .

« كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ، ولتقصرنهم على الحق قصرا ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض »[2] .

* * *

(١) سورة آل عمران [١١٠] .

(٢) أخرجه أبو داود .

إذا علمنا يقينا أنه ليس « لولى الأمر » أن يتصرف بإلغاء الشريعة ، أو تعطيلها ، أو تأجيلها ، وليس للأمة أن تطيعه إن فعل ذلك أو تقره عليه .. فبقى أن نعرف حدود ولى الأمر فى التصرف .

إنما يجوز له – بل يجب عليه – أن يتصرف فى المصالح المرسلة ، التى لم يرد فيها نص ، بما يحقق مصلحة الأمة ، بحيث لا يخالف مقاصد الشريعة ، ولا يحل حراما ولا يحرم حلالا . كما يجوز له أن يتصرف فى الأمور المتغيرة ، التى تتغير بتغير الأحوال[1] ،والتى نزلت فيها الأصول العامة التى تضبط حركة الأمة خلال حركتها التاريخية ، وترك للاجتهاد استنباط الأحكام المناسبة لكل عصر ، بنفس الشروط السابقة وهى عدم الخروج على مقاصد الشريعة ، وعدم تحليل الحرام ولا تحريم الحلال . أما الأمور الثابتة ، ومن بينها الحدود ، وعلاقات الجنسين ، وعلاقات الأسرة .. الخ ، فليس لأحد أن ينقلها من الخط الثابت إلى الخط المتغير بأى عذر من المعاذير !

---

(١) راجع المبحث الثالث .

المبحث الثالث
شُبهة التطوّر

وَعَدَم مُلاءَمة الشَّريعة للأَحْوالِ المُستَجدّة في حَياةِ النَّاسِ

هل تصلح الشريعة التى نزلت قبل أربعة عشر قرنًا أن تحكم الواقع المعاصر ، وقد جدّ فى حياة الناس بعد الثورة الصناعية وتقدم العلم وتشابك العلاقات البشرية وتعقدها مالم يكن قائماً وقت نزول هذه الشريعة ؟

وإذا كان تطبيق الشريعة قد ظل ممكنًا طيلة القرون العشرة التى تلت نزولها بسبب بطء التغيرات التى جدت فى حياة الناس ، وانحصارها فى أمور ليست بعيدة الشبه بالأحوال التى نزلت فيها الشريعة ، فهل تظل على الدرجة ذاتها من إمكان التطبيق بعد أن كادت تندثر الأحوال الأولى ، وجدت بعدها أحوال تكاد تكون مبثوثة الصلة بما كان من قبل ؟!

كذلك يفكر بعض الناس .. ولعل هذه هى أهم القضايا التى تثور فى ذهن « المثقف » الغربى تجاه تطبيق الشريعة ، وخاصة إذا كان من المغرقين فى الأخذ بالتفسير المادى للتاريخ ، الذى يتبناه التفكير الماركسى ، وإن كان الغرب « الليبرالى » يشارك فيه بقدر ليس بالقليل[1] .

---

(١) فى الحقيقة لا يوجد فارق جذرى بين التفكير « الليبرالى » الذى يتبناه الغرب الرأسمالى ، والتفكير الجدلى المادى الذى يتبناه العالم الشيوعى تجاه قضية التطور بالذات ، إنما هو فارق فى الدرجة لا فى النوع .

ونريد هنا أن نناقش الأمر من طرفيه معاً : قضية « التطور » الذى يغير الحياة على الدوام ، وقضية ثبات الشريعة كما نزلت قبل أربعة عشر قرناً من الزمان .

هذا التطور ، ما حقيقته ؟ هل هو شامل لكل كيان الإنسان وكل أمور حياته ؟ أم إن فى النفس الإنسانية وفى واقع الحياة البشرية أمورًا ثابتة وأخرى متغيرة ؟ وما الثابت وما المتغير على وجه التحديد ؟ وهل العبرة فى النهاية بالأمور الثابتة أم بالأمور المتغيرة ؟ أم بهما معاً ؟ وعلى أى نحو يتم التوفيق بين الثابت والمتغير ؟

وهذه الشريعة ، كيف تتعامل مع الثابت والمتغير فى حياة الناس ؟ وهل هى حقاً « جامدة » بحيث لا تتسع لما يجدّ فى حياة الناس ، أم إن فيها من المرونة ما يجعلها تستوعب الجديد ؟ وما الضوابط التى تحكم عملية التوفيق بين الثابت والمتغير فى أمور الحياة ؟

* * *

يوجد فى الغرب منذ بدايات هذا القرن[1] ما يمكن أن نطلق عليه « لوثة التطور » . فقد أحدثت نظرية التطور التى نادى بها دارون[2] هزة عنيفة فى الحياة الأوربية فى جميع مجالاتها ، ولم يقتصر الأثر على مجال علم الحياة بالذات ، الذى كان دارون يحصر بحثه فى

(١) القرن العشرين الميلادى .

(٢) هو العالم البريطانى تشارلس دارون الذى كان متخصصاً فى علم الحياة ، ونادى بنظرية التطور Evolution التى قال فيها إن الكائنات الحية ظلت تتطور من الكائن الوحيد الخلية – أول الكائنات الحية على ظهر الأرض – إلى الإنسان مروراً بحلقات متعددة منها اللافقاريات فالأسماك ، فالبرمائيات ، فالطيور ، فالثدييات الدنيا ، فالثدييات العليا ، فالقردة ، فالقردة العليا فالإنسان (على افتراض وجود حلقة مفقودة هى الإنسان القرد) .

نطاقه . ذلك أن النظرية[١] – وإن حصرت مجال بحثها فى نطاق علم الحياة – قد تعدت هذا النطاق بإيحاءاتها الخطيرة التى شملت مجالاً واسعًا من الفكر والاعتقاد ، كما أن هناك من استغل هذه الإيحاءات استغلالاً مقصودًا لتدمير بعض المفاهيم السائدة ، وإحلال مفاهيم أخرى بدلاً منها ، تخدم أغراض فريق معين من الناس ، وبذلك امتدت إيحاءات النظرية وتأثيراتها إلى مجال العقيدة ، وكذلك مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والفن والفكر .. وكلها من مجالات التشريع .

كان مما قررته تلك النظرية –أو بالأحرى ذلك الفرض العلمى– أن « الخلق » يتم بطريقة ذاتية ، ولا دخل فيه للإرادة الإلهية[٢] . وأن « الطبيعة » هى الخالق[٣] ، وأن الطبيعة لا قصد لها من الخلق ولا غاية[٤] . وأن التطور يرجع إلى ضغط الظروف المادية المحيطة بالكائن الحىّ ولا دخل للكائن الحىّ فيه ولا إرادة له تجاهه[٥] .

وتلك كلها – كما ترى – أمور أوسع من دائرة علم الحياة ، وإن كان دارون نفسه لم يستخدمها إلا فى نطاق ذلك العلم . فإن

---

(١) هى فى الحقيقة فرض علمى لم يرتق إلى مرتبة النظرية كما سيجىء .

(٢) يقول دارون : « إن تفسير النشوء والارتقاء (التطور) بتدخل الإرادة الإلهية يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة فى وضع ميكانيكى بحت :

This would be to introduce a supernatural element in a completely mechanical position .

(٣) يقول دارون : « إن الطبيعة تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها على الخلق

«Nature creates everything and there is no limit to its creativity» .

(٤) يقول : « إن الطبيعة تخبط خبط عشواء «Nature works haphazardly»

(٥) انظر فى ذلك كله كتابه « التطور Evolution» وكتابه « أصل الأنواع Origin of Species» فى أماكن متعددة منهما .

افتراض الخلق الذاتى[1] ، وافتراض أن الطبيعة لها القدرة على الخلق ، وأنها تخبط خبط عشواء بلا حكمة ولا تدبير ولا قصد ، هذه كلها أمور تمس العقيدة ، وتعارضها معارضة أساسية ، وفضلاً عن ذلك فإنها لابد أن تؤثر فى وجدان الإنسان الذى يؤمن بها ، فتغير مفاهيمه وقيم حياته ، كما تغير أحواله السلوكية . فثمت فرق واضح بين إنسان يؤمن بأن الله هو الذى خلقه ، وخلقه لهدف معين ، ورسم له منهجاً معيناً يعينه على تحقيق ذلك الهدف ، وسيسأله فى النهاية عن مدى تحقيقه لما أمره به ، وإنسان يؤمن بأن الطبيعة هى التى خلقته ، وخلقته صدفة بلا قصد ، ولم ترسم له منهج حياة معين ، ولا هى ستسأله عن تحقيق شىء بعينه !!

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾[2]

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[3] .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[4] .

---

(١) يلاحظ أن دارون أطلق ذلك الفرض – غير العلمى – ولم يُقِمْ أى دليل عليه ، وكذلك القول بالطبيعة الخالقة ، والطبيعة التى تخبط خبط عشواء .. وهذه الفروض كلها جزء أساسى من « النظرية » ! ومع ذلك فقد انتشرت فى المجال العلمى كأنها حقائق ثابتة ! ويلاحظ من الجانب الآخر أن هناك نظريات علمية جديدة ترفض الفرض الداروينى من أساسه .

(٢) سورة ص [٢٧–٢٨] .

(٣) سورة المؤمنون [١١٥] .

(٤) سورة الزمر [٩] .

كما أن افتراض أن التطور – على فرض ثبوته ثبوتاً قاطعاً[1] – يتم فقط بضغط الظروف المادية المحيطة بالكائن الحىّ ، وليس لله دخل فيه ، كما أن الكائن الحىّ – بما فى ذلك الإنسان – ليس له دخل فيه ، ولا إرادة له تجاهه ، يحدث تصوراً معيناً عند من يؤمن به ، يجعل الإله فى حسه هو « المادة » ، ويجعل الإنسان عبدا لها ، محكوماً بقوانينها ، لا يملك الفكاك من أسرها ، ويجعل القيم المعنوية لا وزن لها فى حياته ، لأنها ــ إن آمن بها – لا تزيد فى حسه على أن تكون انعكاساً للأوضاع المادية ، ونتاجاً لها ، مباشرًا أو غير مباشر .

وذلك – فى الحقيقة – هو عين الأثر الذى تركته الداروينية فى الفكر الغربى ، على وعى من الناس أو غير وعى !

على أن الأمر فى الواقع لم يتم من جراء التأثير التلقائى للفكر الداروينى ، وهو فى ذاته كافٍ عند من يؤمن به لأن يحدث فى نفسه تغييرًا شاملاً ، وإنما كان اليهود – المتربصون أبدًا للإفساد[2] – كأنهم فى انتظار هذه القذيفة المدمرة ، فسعوا بها فى كل مجال ، ينشئون على أساسها نظريات « علمية » فى الاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها من المجالات ، كلها مُعادٍ للفكر الدينى والقيم الدينية[3] ، كما

---

(١) ليس كل العلماء يسلمون بالتطور ، وليس كل الذين يسلمون به يوافقون على أنه تم على ذات النسق الذى افترضه دارون .

(٢) يصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ ويسعون فى الأرض فساداً ، والله لا يحب المفسدين ﴾ [سورة المائدة : ٦٤] فيجعل السعى للإفساد صفة دائمة فيهم ، وديدنا لهم .

(٣) كنظرية ماركس فى الاقتصاد ، ونظرية فرويد فى علم النفس ، ونظرية دوركايم فى علم الاجتماع ، ومذهب « العبثية » عند سارتر وغير أولئك من اليهود كثير .

ينشئون – بفضل سيطرتهم على الثورة الصناعية[1]– مجتمعاً بلا دين ولا أخلاق ولا تقاليد ، تنفيذًا لمخططهم فى استعباد البشر – بعد إفسادهم – ليكونوا خدماً لشعب الله المختار[2] .

ولقد تمت لليهود السيطرة – بقدر من الله – استثناءً من حالتهم الدائمة التى توعدهم الله بها :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾[3] .

وهذا الاستثناء ذاته وارد فى كتاب الله لحكمة يريدها الله :
﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ﴾[4] .

---

(١) سيطر اليهود على الثورة الصناعية منذ نشأتها عن طريق الإقراض بالربا ، مما مكنهم من جمع الثروات الطائلة ، وجمع الذهب والتحكم به فى عملات الدول ، كما مكنهم من السيطرة على وسائل الإعلام العالمية ، فاستطاعوا عن طريق ذلك كله التحكم فى سياسة المعسكرين معاً : الشرقى والغربى ، والتحكم فى الاقتصاد العالمى ، والتحكم فى أفكار الناس وسلوكهم وأخلاقهم ، وبث المذاهب الفكرية الهدامة ، وبث ألوان من « الجنون » مختلفة ، كجنون الجنس ، وجنون الكرة ، وجنون « المودة » ، وجنون الزينة ، وجنون السينما والإذاعة والتليفزيون والفيديو .. الخ .

(٢) يقول التلمود – وله عند اليهود قداسة تفوق قداسة التوراة – إن الأمميين هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار . وقد تعلم اليهود أن السبيل الوحيد لاستحمار الإنسان هو إفساد عقيدته وأخلاقه فيصبح البشر ﴿ **كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة** ﴾ كما وصفهم الله فى كتابه العزيز [سورة المدثر : ٥٠–٥١] ومن ثم يسهل على الشيطان وأوليائه أن يوجهوهم حيث شاءوا .

(٣) سورة الأعراف (١٦٧) .

(٤) سورة آل عمران (١١٢) .

ولعله عقاب للبشرية على كفرها ، وتبجحها بالكفر :

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾[١] .

وعقاب للأمة المسلمة بالذات من أجل تفريطها فى رسالتها لنفسها ورسالتها للبشرية :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[٢] .

وليس هنا على أى حال مجال الحديث عن دور اليهود فى نشر الداروينية وجعلها منبعاً لإفساد العقائد والأفكار والسلوك ، إنما نريد فقط أن نركز الحديث عن فكرة التطور وتأثيرها فى إثارة شبهة عدم إمكان تطبيق الشريعة الإسلامية عند المنخدعين بالغزو الفكرى من المسلمين[٣] .

كان من بين الأسباب التى أدت إلى الهزة العنيفة التى أحدثتها فكرة التطور فى الحياة الأوربية أن الفكر الكنسى السائد فى أوربا فى العصور الوسطى[٤] كان يتصور الثبات المطلق فى كل شىء ، وينادى بالثبات الدائم فى كل شىء، فجاءت فكرة التطور مصادمة تماماً لذلك

---

(١) سورة الأنعام (٦٥) .

(٢) سورة البقرة (١٤٣) .

(٣) انظر - إن شئت - فى بيان دور اليهود فى إفساد أوربا، ومسؤولية الأمة المسلمة فى ذلك الشأن ، ومحدودية المدى الذى تستمر فيه الفترة الاستثنائية لسيطرة اليهود : «مذاهب فكرية معاصرة» ، فصل «دور اليهود فى إفساد أوربا» .

(٤) تسمى أوربا عصورها الوسطى «العصور الوسطى المظلمة» وهى على حق كامل فى هذا الوصف ، ولكنها كانت مظلمة فى أوربا وحدها ، بينما كانت الفترة ذاتها من أزهى عصور العلم والعرفان واليقين فى العالم الإسلامى . وتنسب أوربا ظلام عصورها

الفكر ، بحيث بدا ألّا سبيل للقاء بينهما ، وأنه لا مناص من أن يترك أحدهما مكانه للآخر بكامله ، فإما الثبات الكامل فى كل شىء ، وإما التطور الكامل فى كل شيء ، ولا طريق ثالث ! ولما كان النفوذ الكنسى - الذى يتبنى فكرة الثبات - كان قد أخذ ينهار رويداً رويداً منذ القرن السادس عشر الميلادى ، منذ قامت « النهضة » على أسس معادية للدين أو معارضة له ، وكان النفوذ العلمى والعلمانى - الذى تبنى فكرة التطور - قد أخذ يتزايد فى الحياة الأوربية باستمرار ، فقد كان الظاهر من مجرى الحوادث أن فكرة الثبات المطلق فى كل شىء هى التى عليها أن تغادر الساحة - مهزومة - لتخلى مكانها لفكرة التطور المطلق فى كل شىء، سواء كان مما يقبل التطور فعلاً أو كان غير قابل للتغيير !

ولا شك أن الفكر الكنسى لم يكن خاطئًا كله ، وإن لم يكن على صواب فى كثير من الأمور .

فاعتقاد الثبات فى قضية الألوهية اعتقاد حق - بصرف النظر عن انحراف الكنيسة فى قضية التثليث ، وقضية تأليه عيسى ، وادعاء بنوته لله - فالله سبحانه وتعالى دائم ، حىّ قيوم ، أزلى أبدى لا تتغير ذاته ولا تتغير أسماؤه ولا صفاته . واعتقاد الثبات فى قضية الخلق اعتقاد حق ، بمعنى أن الله هو الخالق ، وأن كل شىء من خلقه ، وأنه هو المهيمن على الخلق ، المدبر لملكوت كل شىء . كذلك الاعتقاد بثبات وضع الإنسان فى الأرض ، بمعنى أن الله هو الذى خلقه ، وأهبطه إلى الأرض ليقضى فيها أجلاً مسمى ومهمة معينة ، ثم يموت ليبعث

= الوسطى إلى « الدين » وهى صادقة فى هذا بالنسبة لدينها المحرف لا بالنسبة للدين فى ذاته كما يرى المخدوعون بالغزو الفكرى ، فقد كان « الدين » هو مصدر النور بالنسبة للمسلمين فى ذات الفترة .

ويحاسب على ما قام به من عمل فى الحياة الدنيا ثم يخلد فى الملكوت (أى الجنة) أو يخلد فى العذاب .

أما اعتقاد الثبات فى الأجرام السماوية ، وفى الموجودات على الأرض ، وفى النظم والأشكال والأنماط ، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية .. فلم يكن تصور الكنيسة فيه صائباً ولا واعياً ، وكان أكثره يصدر عن جهل مطبق بالسنن الربانية ذاتها ، فضلاً عن العلوم الكونية التى كان نصيب أوربا منها فى العصور الوسطى أضأل نصيب .

وأياً كان الأمر فقد ظل هذا الفكر سائدًا - بخطئه وصوابه - طيلة العصور الوسطى حتى بدأت النهضة الأوربية بتأثير احتكاك أوربا بالمسلمين ، سواء الاحتكاك السلمى بانتقال علوم المسلمين وثقافتهم وحضارتهم من الأندلس إلى أوربا عن طريق ابتعاث أوربا أبناءها إلى هناك لطلب العلم ، ثم قيامهم بترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية والإغريقية، أو الاحتكاك الحربى فى الحروب الصليبية التى قادتها أوربا ضد المسلمين فى الشرق .

وقد حدث - نتيجة ظروف كثيرة متشابكة لا مجال لتفصيلها هنا[1] - أن أخذت أوربا علوم المسلمين وحضارتهم دون أن تأخذ الإسلام ، الذى انبثقت منه فى حياة المسلمين تلك العلوم وتلك الحضارة ؛ فنشأت عندها حضارة معادية للدين ، أو فى القليل مبتعدة عنه ، ترفض أن ترجع فى شىء من أمور الحياة إلى الوحى الربانى ،

---

(١) انظر : « مذاهب فكرية معاصرة » فصل « العلمانية » وكذلك : « العلمانية » لسفر عبدالرحمن الحوالى .

وتفضل أن ترجع إلى فكر « الإنسان » وإلى المعرفة البشرية[1] .

وحين قام دارون ينادى بنظرية التطور لم يكن الفكر الأوربى قد تهيأ بعد لقبولها بكل تفصيلاتها وكل إيحاءاتها ، خاصة وهى تنزع عن « الإنسان » كرامته الإنسانية ، وترده إلى أصل حيوانى بحت ، وتنزع عنه تفرده الذى يعتز به ، وترده مجرد واحد من الكائنات التى وجدت على الأرض صدفة ؛ وهو متطور نعم ! ولكنه مع ذلك حيوان ! أو كما سماه أحد الداروينيين « القرد الأملس » «The Hairless Ape» أى الذى لا يكسو جسده الشعر !

ولكن أوربا مع ذلك تقبلت الداروينية على تردد فى مبدأ الأمر ، ثم خف التردد تدريجياً ، حتى انقلب فى نهاية الأمر إلى حماسة جياشة لا تبقى مجالاً لثبات أى شىء على الإطلاق .. لا الدين ولا الأخلاق ولا التقاليد ولا القيم ولا الأفكار ؛ كما كانت قد أقتنعت من قبل أنه لا ثبات لشىء فى الكون المادى .. لا الأجرام السماوية ولا الأفلاك ، ولا الكائنات الأرضية من نبات أو حيوان .. أو إنسان !!

وكان وراء ذلك التحول الذى تم خلال عقود قليلة من الزمن عدة أمور ...

فالثورة الفرنسية كانت قد هزت أوضاعاً ثبتت من قبل فى أوربا وغيرها من بلاد العالم عدة ألوف من السنين .

والثورة الصناعية كانت قد هزت أوضاعاً أخرى ، ثبتت هى الأخرى من قبل عدة ألوف من السنين ، منذ تعلم الناس الزراعة

---

(١) هذا هو منشأ « العلوم الإنسانية » فى أوربا ، أى العلوم التى يرجع فيها إلى العلم البشرى لا إلى الوحى الربانى ! وهكذا ولدت تلك العلوم معادية للدين من أول لحظة !

وعاشوا عليها ، فإذا الزراعة تصبح شيئاً هامشياً فى حياة الناس ، ويتجه الاهتمام إلى الإنتاج الصناعى المتزايد ، وإذا المرأة التى ظلت دهورًا طويلة من حياة البشرية قابعة فى بيتها ، عاكفة على شئون زوجها وأبنائها ، تخرج إلى العمل فى المصانع ، وتنتج من جراء ذلك « قضية » تشغل البشرية قرناً كاملاً من الزمان[١] ..

ووراء ذلك كله كان اليهود المتربصون للإفساد ، ينتهزون الفرصة السانحة ، فيعيثون فساداً فى الأرض ، مستغلين الداروينية وإيحاءاتها فى تدمير كل القيم الثابتة فى حياة الإنسان ! ومستغلين النفور من الكنيسة وطغيانها لتدمير كل ما يتعلق بالدين ![٢]

* * *

ونحن هنا لا ندخل فى مناقشة علمية مع الداروينية ، فذلك متروك لأهل الاختصاص[٣] ، وإن كنا نحيل القارئ إلى عالم داروينى من علماء ما يسمى « الداروينية الحديثة Neo Darwinism » هو « جوليان هكسلى » الذى قال فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث Man in the Modern World » إن الإنسان متفرد فى كيانه كله ،

---

(١) راجع إن شئت فى نشأة « قضية المرأة » فى أوربا ، وما أحدثته من آثار فى المجتمع الأوربى « دور اليهود فى إفساد أوربا » من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

(٢) راجع كذلك « مذاهب فكرية معاصرة » التمهيد الأول : « دور الكنيسة » والتمهيد الثانى « دور اليهود فى إفساد أوربا » .

(٣) سبق أن أشرنا إلى أن الفروض الداروينية ليست مسلمة عند كل العلماء ، وأن هناك علماء يرفضونها تماماً ، وآخرون يرونها على صورة أخرى غير ما تصورها دارون . انظر على سبيل المثال : موريس بوكاى ، أصل الإنسان ، ترجمة مكتب التربية الخليجى .

حتى الكيان « البيولوجى » ذاته ، فضلاً عن تفرده فى كيانه العقلى وكيانه النفسى الذى لا مثيل له فى سائر الكائنات[1] .

ولكننا – مع عدم دخولنا فى نقاش علمى مع نظرية دارون – نقول إن العلم اليوم قد تقدم كثيرًا عنه فى أيام دارون ، واكتشف العلماء – خاصة بعد تفجير الذرة ، ثم تفجير نواتها – أن هناك سننا ثابتة فى هذا الكون رغم التغير الدائم فى صوره وأشكاله ، وهذا ما لم يكن واضحاً تمام الوضوح عند دارون ، فصحيح أنه اكتشف سنة التطور ، ولكنه لم يكتشف السنن الثابتة التى يتم فى نطاقها التطور ، بل قال – عن جهالة – إن « الطبيعة » تخبط خبط عشواء !

لقد اكتشف العلماء أن هناك نسقاً ثابتاً فى بناء الكون كله ، هو المتمثل فى تركيب الذرة من نواة موجبة وكهارب سالبة تدور حولها بسرعة معينة . وأن الفرق بين عنصر وعنصر ليس فرقاً فى هذا النسق الثابت ، إنما هو فى عدد الوحدات التى تتكون منها ذرة كل عنصر ؛ وأن هناك تحولات كثيرة تمت فى الكون خلال ملايين السنين ، ولكنها لم تغير هذا النسق الثابت ، ولم تغير كذلك الطريقة التى يتم بها التحول من حالة إلى حالة ومن صورة من صور المادة إلى صورة مغايرة .. وأن وراء ذلك كله قوة مدبرة تحكم النسق الثابت وتحكم طريقة التغيير[2] !

---

(١) راجع : جوليان هكسلى ، الإنسان فى العالم الحديث ، ترجمة حسن خطاب ومراجعة الدكتور عبدالحليم منتصر ، فصل « تفرد الإنسان » إصدار مشروع الألف كتاب ، وزارة التعليم العالى ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

(٢) انظر العالم الأمريكى هوكنج Hoking فى كتاب A Brief History of Time ، طبع الولايات المتحدة ، الناشر بانتام Bantam أبريل ١٩٨٨ .

كما اكتشف علماء الحياة من أسرار الخلية الحية ما أقنعهم كذلك بثبات السنن التي تحكم عمليات التحول في بناء الخلية ، وأن التحول لا يتم خبط عشواء ![1]

تلك إذن هي الصورة الصحيحة التي اهتدى إليها العلم ، سنن ثابتة وصور متغيرة . أو قل : صور متغيرة تدور حول محاور ثابتة .

ولو اهتدى دارون إلى تلك الحقيقة لحسم القضية ، ولما ترك لليهود الفرصة يعيثون بالداروينية فساداً في الأرض[2] !

ولكن الذي حدث بالفعل أن الفكر الدارويني ظل ينمو ويتسع نطاقه حتى غشّى مجالات البحث كلها ، بما فيها دراسة التاريخ ، وعلم الاجتماع ، وقيل في التفسير الجدلي للتاريخ[3] ، كما قيل في علم الاجتماع : إنه لا ثبات لشيء على الإطلاق في حياة الإنسان ، وقال دوركايم[4] : « كان المظنون أن الدين والزواج والأسرة هي أشياء من الفطرة[5] ، ولكن دراسة التاريخ تطلعنا على أن هذا الأمر ليس حقيقة ! »[6] وقيل من بين ما قيل : إن البشرية قد مرت في ثلاثة

---

(١) انظر موريس بوكاي ، أصل الإنسان (سبقت الإشارة إليه) .

(٢) جاء في البروتوكول الرابع من « بروتوكولات حكماء صهيون » : نحن رتبنا نجاح دارون ونيتشة ، وإن أثر فكرهما في عقائد الأمميين واضح لنا بكل تأكيد » .

(٣) المعروف باسم « التفسير المادي للتاريخ » .

(٤) إميل دوركايم عالم اجتماع يهودي (١٨٥٨-١٩١٧ م) ومن أكبر المؤثرين في الدراسات المعاصرة في علم الاجتماع ، وينقل عنه - مع الأسف - « علماء » الاجتماع عندنا بلا تحفظ !

(٥) أي أشياء لها صفة الثبات .

(٦) انظر دوركايم ، مقدمة في علم الاجتماع ، ترجمة الدكتور محمود قاسم ، إصدار إدارة الترجمة بوزارة التعليم العالي ، القاهرة ط ٢ ، ص ١٧٣ . وجاء في هذا الكتاب أيضًا (ص ٥٩: ٦٠) إن النظر إلى القيم الأخلاقية على أنها قيم ثابتة هو نظرة غير علمية على الإطلاق .

أطوار : طور السحر ثم طور الدين ، ثم طور العلم ! وإنه كما أخلى السحر مكانه للدين ، فقد أخلى الدين مكانه للعلم !

* * *

ونترك أوربا ، وما حدث فيها من اختلالات فكرية ، ابتداء من الدين الكنسى المحرف إلى التمرد على الدين واتخاذ « العلمانية » منهجا للتفكير ومنهجا للحياة ، وتفشى لوثة التطور ولوثة الإلحاد ، والنظر إلى كل « ثابت » على أنه رجعية وتأخر ، وإلى كل « متطور » على أنه تقدم ورفعة ورقى ..

نترك هذا كله وننتقل إلى العالم الإسلامى .

إن الفكر الإسلامى ، المهتدى بكتاب الله ، المستنير بنور النبوة ، لم يتعرض لتلك الاختلالات التى تعرض لها الفكر الأوربى . وفى قضيتنا بالذات ، التى نتناولها هنا بالبحث ، لم يعتقد المفكرون المسلمون أن كل شىء على الإطلاق ثابت ، ولا أن كل شىء على الإطلاق متغير . إنما اعتقدوا دائما أن هناك ثوابت وهناك متغيرات ، وخاصة فى حياة الإنسان .

وما قضية الاجتهاد فى الشريعة إلا تجسيد واقعى لهذا الاعتقاد .

فأمور الحياة على الدوام تتغير ، ويجتهد العلماء فيما لم يرد فيه نص ، ولكن اجتهادهم مقيد دائما بضوابط ثابتة ، هى ما يطلقون عليه « مقاصد الشريعة » .

وقبل أن نتعرض لقضية الشريعة ، وقضية الاجتهاد ، نسأل : ما الثابت وما المتغير فى الكيان الإنسانى وفى الحياة البشرية ؟

هل صحيح أن الإنسان ليس له كيان ثابت ولا فطرة ، إنما هو مجرد انعكاس للحياة المادية المحيطة به ، وأنه من ثم قد تغير تغيرا جذريا

منذ عاش على الأرض إلى اليوم ، وأن كل طور مادى مرّ به قد شكل جوهره على صورة مختلفة تماما عما كان عليه فى الطور السابق ، وأن إنسان « العصر الصناعى » هو فى النهاية كائن مختلف تمام الاختلاف عن الإنسان الزراعى ، فضلا عن الإنسان الرعوى ، فضل عن سكان الكهوف ؟

يقول « رنيه دوبو » فى كتاب « إنسانية الإنسان » :

عاش رجل كرو ماغنون Cro-Magnon فى أكثر أنحاء أوربا قبل حوالى ثلاثين ألف سنة ، قبل قيام الزراعة وحياة القرية بفترة طويلة . ومع أنه كان صيادا بصورة رئيسية كان - على ما يظهر - مشابها لنا جسما وعقلا ، فأدواته وأسلحته تناسب حجم أيدينا الآن ، وفنه فى كهوفه يثير مشاعرنا ، والعناية التى كان يوليها لدفن موتاه تكشف أنه شاركنا بشكل ما بالاهتمام بنهاية الإنسان وآخرته ، وكل أثر مدون من آثار إنسان ما قبل التاريخ يوفر شواهد أخرى للفكرة القائلة أن الخواص الأساسية للجنس البشرى لم تتغير منذ العصر الحجرى »[١] .

ولننظر نحن ماذا تغير فى حياة الإنسان ..

كان الإنسان يعيش فى الكهوف ، فبنى الأكواخ ، ثم بنى المنازل والقصور .. وقد يبنى غدا مساكن فى الكواكب الأخرى أو فى مركبات الفضاء !

وكان الإنسان يكتسى بأوراق الشجر والريش ، فصنع الملابس من النسيج اليدوى ، ثم صنعها من النسيج الآلى ، وتفنن فى صنعها فجعل منها « مودات » ، وجعل لها تقاليد ..

---

(١) رينيه دوبو ، إنسانية الإنسان ، ترجمة د. نبيل صبحى الطويل ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٩ ص ٧١ .

وكان يأكل الطعام نيئا قبل أن يكتشف النار ، فصار يطهوه ، ثم تفنن فى صنعه ، واتخذ له أدوات ، وجعل له تقاليد ..

وكانت الحياة تعتمد على الصيد ، ثم استأنس الإنسان حيوان الرعى فصارت الحياة رعوية ، ثم صارت زراعية بعد اكتشاف الزراعة ، ثم صناعية بعد اختراع الآلة ، وقد تكون غدا على نحو جديد غير كل ما تقدم .

وكان الإنسان يسير على قدميه إذا أراد الانتقال من مكان إلى مكان ، أو يضم بعض الأخشاب بعضها إلى بعض فيعبر عليها الماء ، ثم استخدم دواب الحمل والسفن الشراعية ، ثم اخترع السيارة والباخرة ، ثم ركب الطائرة والصاروخ .

وكان الإنسان فردا فى أسرة ، فصار فردا فى قبيلة ، فصار فردا فى مجتمع يتألف من عدة قبائل ، فصار فردا فى أمة ، فصار فردا فى مجتمع دولى متباعد الأطراف منعزل بعضه عن بعض ، فصار فردا فى مجتمع يوصف بأنه « مجتمع إنسانى ! »[1] تقاربت أطرافه بفعل تقدم وسائل الاتصال فأصبح شبيها بالقرية الواحدة !

نعم .. تغيرت كل « صور » حياته .. فما الذى تغير فى كيانه من الداخل ؟

هل تغير حبه للبقاء ؟ وحبه للامتداد عن طريق النسل ؟ وحبه للبناء والتعمير والإنشاء والتغيير ؟ وحبه لتصنيع الخامات وتحسين

---

(١) هذا المجتمع الذى يسمى « المجتمع الإنسانى ! » هو الذى حدثت فيه أبشع أشكال القتل الجماعى ، وأبشع ألوان العدوان ، والذى يعيش بعضه فى الترف المهلك وبعضه الآخر فى الفقر المهلك . بعضه يلقى الأقوات فى البحار والأنهار أو يحرقها لكى لا تنخفض أسعارها فى السوق العالمية ، وبعضه لا يجد لقمة الخبز التى تحفظه من الهلاك !

الأدوات وتجميل الحياة ؟ وحبه للبروز وإثبات الذات ؟ وحبه للتملك[1] ؟ وحبه لذاته وحبه فى الوقت نفسه للاجتماع مع الآخرين ؟

هل تغيرت أطماعه ؟ هل تغيرت أمانيه ؟

باختصار : هل تغيرت « نوازعه الفطرية » ؟

وهل تغير قبل ذلك كله ، ومع ذلك كله ، أن الإنسان – فى جميع أحواله وأطواره وعصوره – أحد اثنين بينهما فارق « جوهرى » فى التصور وفى السلوك : إما كافر وإما مؤمن . إما متبع لمنهج الله وإما متبع لمنهج الشيطان .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾[2] .

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[3] .

هل تغير شىء حقيقى فى أعماق الإنسان من الداخل حين تغيرت صور حياته على مدار التاريخ ؟

إن الفارق الجوهرى فى الحقيقة ليس بين الإنسان الرعوى ، والإنسان الزراعى ، والإنسان الصناعى ، والإنسان الذرى ! إنما هو بين الرعوى المؤمن والرعوى الكافر ، والزراعى المؤمن والزراعى الكافر ، والصناعى المؤمن والصناعى الكافر ، والذرى المؤمن والذرى

---

(١) كانت للشيوعية دعوى عريضة فى أن حب التملك ليس نزعة فطرية ، إنما هو نزعة شريرة اكتسبها الإنسان فى أثناء تطوره المادى بعد اكتشاف الزراعة واستمرت معه فى عهود الرق والإقطاع والرأسمالية ، حتى جاءت الشيوعية فردته عنها وشفته من آثارها ! وقد تهاوت الشيوعية أخيرًا وتهاوت معها دعاواها !

(٢) سورة التغابن [٢] .

(٣) سورة المعارج [١٩-٢٢] .

الكافر ! أما الفوارق الجزئية – أو الظاهرية – بين الرعوى والزراعى والصناعى ، فهى كما قلنا فوارق فى الصورة وليست فى داخل الكيان .

* * *

هل معنى ذلك ألا نأبه إطلاقا لتغير الصورة مادام الجوهر لم يتغير ؟

لا أحد يقول ذلك ! فإن القول بذلك معناه إلغاء « التاريخ » . معناه إلغاء كل الجهد الذى بذله الإنسان فى عمارة الأرض . معناه إلغاء دور « الخلافة » التى خلق من أجلها الإنسان ، والتى تشمل – فيما تشمل – عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [1]

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [2] .

﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [3]

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [4] .

ومن خلال حركة الإنسان فى الأرض ، واحتكاكه بالكون المادى ، ومحاولة تسخير طاقاته .. تتغير صور الحياة جيلا بعد جيل ، وعصرا بعد عصر . فإن ألغينا من اعتبارنا هذا التغير فى الصورة ، فإننا نلغى معه هدفا رئيسيا من أهداف الوجود البشرى ، وتختل بين أيدينا المعايير .

---

(١) سورة البقرة [٣٠] .

(٢) سورة هود [٦١] .

(٣) سورة الملك [١٥] .

(٤) سورة الجاثية [١٣] .

وكيف نصنع إذن فى هذه القضية ، التى لا نستطيع فيها اهمال الثوابت ولا إهمال المتغيرات ؟

لقد كان خطأ الفكر الكنسى هو التركيز على الثابت وحده ، وإهمال المتغيرات وعدم إعطائها أى اعتبار .

وكان خطأ الفكر « التطورى » المنبثق عن الداروينية بصفة خاصة ، هو التركيز على المتغير وحده ، وإهمال القيم الثابتة وعدم إعطائها أى اعتبار .

والصواب ألا نهمل هذه ولا تلك ، لأن كلا منهما له آثاره الواضحة فى حياة الإنسان .

ولكن السؤال الذى يحدد القضية - وهو مفتاحها كذلك - هو : من الذى يحكم الآخر ؟ المتغير يحكم الثابت ؟ أم الثابت يحكم المتغير؟! الجوهر يحكم الصورة ، أم الصورة تحكم الجوهر ؟

إن قلنا إن المتغير يحكم الثابت - كما يقول أصحاب الفكر التطورى - فقد ضاع منا المحور الذى تدور حوله الصورة .. ومن ثم تفقد الصورة معيارها الذى يضبط حركتها ، ثم تفقد معناها فى نهاية المطاف !

أما إذا قلنا إن الثابت يحكم المتغير فلن يضيع منا شىء ، لا الثابت ولا المتغير ! إنما فقط تنضبط حركة التغير ، فلا تخرج عن مسارها الصحيح .

وهذا هو الحق الذى خلقت به السموات والأرض .. وخلق به الإنسان :

﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[1] .

---

(١) سورة الجاثية [٢٢] .

وهذا هو الذى نزلت به الشريعة الإسلامية لتحكم الحياة البشرية إلى آخر الزمان !

* * *

ليس المجال هنا أن نتكلم عن مزايا الشريعة الإسلامية فى عمومها ، وعن شمولها للحياة من جميع أطرافها فى توازن وتكامل واتساق . فلهذا مجال آخر . إنما نحن معنيون هنا بنقطة واحدة معينة هى قضية « التطور » فى صور الحياة « وثبات » الشريعة . وقضية : كيف يتأتى للشريعة التى نزلت قبل أربعة عشر قرنا أن تواكب ما جدّ فى حياة الناس من تغيرات .

ولا يفوتنا قبل أن نناقش القضية بتفصيل أن نعرض لأحد الجوانب العقدية فى القضية كثيرا ما يغفله الناس فى البحث وهو يستحق التنويه .

إن الذين يتساءلون هذا التساؤل هم فى الحقيقة – بوعي منهم أو بغير وعى – ينكرون صفة من صفات الله على الأقل – إن لم يكونوا منكرين لأكثر من صفة فى واقع الأمر – تلك هى صفة العلم . فكأنهم يتصورون أن الله لم يكن يعلم حين أنزل هذه الشريعة أن أموراً ستجدّ فى حياة الناس تختلف عن الأوضاع التى كانوا عليها يوم نزلت هذه الشريعة ! كما أنهم ينفون فى الواقع صفة الحكمة ، إذ يتصورون أن الله أنزل شريعة لا يمكن تطبيقها إلا فى حيزّ معين من الزمن ثم ألزم الناس بها إلى يوم القيامة !! والله عليم حكيم كما وصف نفسه سبحانه وتعالى ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

والآن نعود إلى التعرف على الأداة التى جعل الله بها هذه الشريعة صالحة للتطبيق إلى يوم القيامة ، وجعلها تتسع لتستوعب كل ما يجدّ فى حياة الناس على هذه الأرض .

نقول بادئ ذى بدء إن هناك أمورا ثابتة فى حياة الناس يجب أن تظل ثابتة . وقد ثبتتها هذه الشريعة ومنعت إحداث أى تغيير فيها ، لأن أى تغيير فيها تنتج عنه اختلالات فى حياة البشرية ، وقد سبق فى علم الله العليم الحكيم أن الثبات هو الأمر الواجب فى تلك الأمور ، فأنزل أمره المحكم بعدم التغيير .

والسبب فى ثبات هذه الأمور ، وفى وجوب تثبيت الأحكام الخاصة بها ، أنها متعلقة بحقائق ثابتة لا تقبل التغيير ، وإن غُيِّرَتْ تفسد الأمور .

أول هذه الأمور هو وجوب عبادة الله وحده بلا شريك .

وبينما وضع التطوريون هذه القضية على الخط المتغير ، وزعموا – كما سبق أن أشرنا – أن البشرية مرت فى ثلاثة أطوار : السحر والدين والعلم ، وأنه كما أن السحر أخلى مكانه للدين ، فكذلك الدين قد أخلى – ويجب أن يخلى – مكانه للعلم !

بينما يقول التطوريون ذلك فإن الله يقول على سبيل الإلزام الدائم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(١) .

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾(٢) .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾(٣) .

---

(١) سورة البقرة [٢١] .

(٢) سورة النساء [٣٦] .

(٣) سورة النساء [١١٦] .

﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾[1] .

وغنى عن البيان أن هذه قضية ثابتة لأنها قضية الألوهية وحقها على العباد . والله سبحانه وتعالى دائم لا يتغير ، وكون العباد هم من خلقه حقيقة دائمة لا تتغير ، فأصبح من مقتضى ذلك أمر ثابت هو وجوب عبادة العباد لربهم وخالقهم :

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[2] .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[3] .

وإنما احتاج التطوريون لكى يزحزحوا هذه الحقيقة عن ثباتها ويضعوها على الخط المتغير ، أن يكذبوا كذبة « علمية » ضخمة ، لم يجيئوا عليها بدليل واحد ، هى كذبة « الخلق الذاتى » دون إله ! وكذبة أخرى لا تقلّ عنها إيغالا فى الخرافة هى كذبة الطبيعة الخالقة ، التى « تخلق كل شيء ولا حدّ لقدرتها على الخلق »[4] !

والقضية الثانية الثابتة–المنبثقة من القضية الأولى والمترتبة عليها– هى لزوم الحكم بما أنزل الله :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ[5] ﴾[6]

---

(١) سورة الزمر [٧] .
(٢) سورة الأعراف [٥٤] .
(٣) سورة الإسراء [٢٣] .
(٤) راجع كلمة دارون من قبل .
(٥) سورة المائدة [٤٤] .
(٦) تحدثنا فى المبحث الأول عن قضية ارتباط الشريعة بالعقيدة .

وقد كانت حجة التطوريين – أو إحدى حججهم – فى نبذ الشريعة الربانية واستبدال حكم البشر بها ، أن الإنسان قد شبَّ عن الطوق ولم يعد فى حاجة إلى وصاية الله !

ولا يستطيع الإنسان أن يمنع نفسه من العجب من ذلك الإنسان الذى شب عن الطوق ولم يعد فى حاجة إلى وصاية الله ، وهو يتخبط كل يوم من ضلالة إلى ضلالة ، ويعيش بعضه فى ضلالة الفردية الجانحة التى تفكك المجموع وبعضه فى ضلالة الجماعية الجانحة التى تسحق كيان الفرد ! بعضه فى الملكية الفردية « الحرة ! » التى لا تضبطها قيود ، فتؤدى ببضعة ألوف من الأفراد أن يستعبدوا الملايين ، وبعضه فى الملكية الفردية الملغاة ، التى تحول جموع الناس عبيداً للدولة ، فيتحكم بضعة ألوف من الأفراد فى حياة الملايين !

ألا إنها لسخرية عظمى .. شبوب الإنسان عن الطوق واستغناؤه عن وصاية الله !

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[1] .

* * *

وإذا كانت الشريعة ملزمة من حيث المبدأ[2] ، فإن فى داخل هذه الشريعة أحكاما ثابتة لا تقبل التغيير ، وأحكاما عامة ثابتة فى ذاتها ، ولكنها تقبل أن تدخل تحتها متغيرات .

ومن بين الثوابت التى لا تقبل التغيير ولا يدخل تحتها متغيرات ، أحكام العبادات كلها ، والحدود ، وعلاقات الجنسين (بما فى ذلك علاقات الأسرة : الزواج والطلاق والمواريث ... الخ) .

---

(١) سورة العلق [٦–٧] .

(٢) تحدثنا فى المبحث الثانى عن قضية الإلزام بشىء من التفصيل .

فأما أحكام العبادات فثباتها ناشئ من أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يقرر للإنسان كيف يعبد ربه ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علم الناس كل ما يجب عليهم وما يجوز لهم أن يتعبدوا الله به ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد »(١) . فتحددت العبادات بما حدد الله وما بيّن رسوله ﷺ ، ولم يعد لأحد أن يزيد فيها من عنده أو ينقص منها على هواه .

وأما الحدود فسنتكلم فى المبحث التالى عن علاقتها « بالحضارة » وعلاقة الحضارة بها ، إذ أنها من منابع الشبهات عند « المثقفين » على الطريقة الغربية . ولكننا نذكر هنا أن أوربا « المتطورة » قد وضعت قضية الجريمة والعقاب على الخط المتغير لأكثر من سبب فى آن واحد .

فمن بين الأسباب أن أوربا النصرانية لم تطبق هذه الحدود أبدا بوصفها شريعة منزلة ، رغم ورود أمثالها فى التوراة ، والتزامهم – نظريا – بشريعة التوراة إلا ما أحل المسيح لهم مما كان محرما عليهم :

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾(٢) .

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾(٣) .

---

(١) سورة النحل [٥١] . (٢) سورة آل عمران [٥٠] .
(٣) سورة المائدة [٤٦-٤٧] .

ولكن وضْع النصارى المستضعف فى ظل اضطهاد الإمبراطورية الرومانية لهم فى القرون الثلاثة الأولى لم يمكنهم من تطبيق الشريعة الربانية فصارت « أخلاقا » تلتزم تعبداً لله من جهة المتقين ، ولكنها ليست أحكاما تنفذها الدولة . فلما قويت النصرانية بعد اعتناق قسطنطين لها (أو تظاهره باعتناقها لأسباب سياسية) وفرضها دينا رسميا على الإمبراطورية الرومانية عام ٣٢٥ م لم يَسْعَ البابوات فى أوج سلطتهم إلى فرض الشريعة الربانية على الملوك والأباطرة ، بل سعوا إلى إخضاع هؤلاء لنفوذهم الشخصى ، وبقى القانون الرومانى هو المطبق على أساس مبدإ غريب على الدين – كل دين – هو مبدأ : « أدِّ ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ! فأصبحت الألوهية شقين : شق لله فى شعائر العبادة وتقوى القلوب ، وشق لقيصر فى حكم الواقع الذى يعيشه الناس !

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[1] .

ولذلك ظلت أوربا – حتى أيام تدينها – تنظر إلى الشريعة على أنها أخلاقيات ، ولا تنظر إليها على أنها أحكام واجبة التنفيذ. فلما بدأت نهضتها المعادية للدين أو المفارقة له ، خف وزن الشريعة فى حسها بصورة متزايدة.. حتى إذا جاءت لوثة التطور زال من حسهم نهائيا كل توقير للشريعة ، وتجرءوا على نقدها والتنديد بها على أنها من التراث « الرجعى » الذى ينبغى للتطور أن يزيله ويستبدل به شيئا « حديثا » ، يعتبر من أجل حداثته قبل كل شىء آخر ، سواءً كان مستحقا للاعتبار فى ذاته أم غير مستحق ! وكان الشىء « الحديث » الذى ابتليت به أوربا هو « علم التحليل النفسى »[2] أو – فى الحقيقة

(١) أخرجه الشيخان .

(٢) مؤسسه هوفرويد وهويهودى . ومن أخطر ما يؤدى إليه التحليل النفسى على طريقة فرويد إسقاط مسئولية الإنسان عن أعماله على أساس أنها ردود فعل قهرية لحالات مرضية وعقد نفسية ، وهو مبدأ مدمر للأخلاق كما هو ظاهر .

« علم تبرير الجريمة » ، والنظر إلى المجرم على أنه مجنى عليه ، لا يستحق أن يوقع عليه العقاب .

ولا نناقش هنا مفهوم الغرب عن الجريمة والعقاب[1] ، فنحن معنيون فى هذا المبحث - كما أسلفنا - بنقطة واحدة معينة هى قضية التطور . فنقول فقط إن أوربا حين وضعت قضية الجريمة والعقاب على الخط المتغير ، وأفتت لنفسها بوجوب تغيير أحكام الشريعة الربانية فى هذا الشأن ، واتخاذ قوانين بشرية بدلا منها[2] ، قد ابتليت - كما يعرف الناس جميعا - بطوفان من الجريمة آخذ فى التزايد باستمرار ، على الرغم من كل الاحتياطات التى تقوم بها دول الغرب ، وعلى الرغم من كل الدراسات : التربوية والنفسية والاجتماعية والقانونية والإعلامية .. الخ ، التى تقوم بها تلك الدول فى فترات متقاربة لا تنقطع !

وما يشهد به الواقع فهو غنى عن البيان !

ومن أبلغ ما يشهد به الواقع - مما تذكره تقريراتهم هم أنفسهم-ما حدث منذ سنوات ، وأشارت إليه صحف العالم كله فى حينه ، من أن محطة القوى الكهربائية فى نيويورك تعطلت ذات مرة لمدة خمس وعشرين ساعة متوالية ، أى نهارا وليلة كاملين (بزيادة ساعة كذلك !) فارتكب فى نيويورك فى تلك الليلة الواحدة ما يوازى جرائم سنة كاملة بسبب الظلام !!

* * *

---

(١) سنتعرض لهذه القضية بشىء من التفصيل فى المبحث القادم .

(٢) لم تطبق الشريعة تطبيقاً واقعياً فى أوربا كما أسلفنا ، ولكن كان لها مع ذلك توقير « أدبى » فى حس الناس .

وأما علاقات الجنسين فقد ثبتت الشريعة أحكامها لأنها قائمة على « ثوابت » لا تتغير : الرجل من جهة ، والمرأة من جهة ، وعلاقة التجاذب بين الجنسين من جهة ثالثة . مالذى يمكن أن يتغير فى هذه الثوابت ؟!

إنه مادام الرجل رجلا والمرأة امرأة ، وما دامت العلاقة بينهما هى علاقة التجاذب ، فلابد أن يحدث اللقاء . وليس لهذا اللقاء إلا إحدى صورتين : صورة منضبطة ، تجعل لهذا اللقاء هدفا أو أهدافا محددة ، وضوابط معينة ، وتبعات « إنسانية » مترتبة عليها ، وإما صورة غير منضبطة بهدف ولا تبعات .

وقد كانت علاقات الجنسين فى الغرب منضبطة بضوابط الدين الثابتة حين كانت أوربا متمسكة بآداب دينها[1] ، علما خرجت على دينها وتمردت عليه ، رأت أن تنقل هذه العلاقات من الخط الثابت إلى الخط المتغير .. فماذا كانت النتيجة .

النتيجة هى ما نراه اليوم فى الغرب – وفى العالم الذى سيطر عليه الغرب – من الفوضى الجنسية والتحلل الخلقى ، وجرائم الجنس المتفشية رغم ذلك التحلل ، أو – بالأحرى – بسبب ذلك التحلل .

وما يشهد به الواقع لا يحتاج إلى بيان !

إن الإنسان – منذ خلقه الله – « إنسان » ! وليس حيوانا متطورا كما زعمت الدارويية القديمة بغير دليل علمى[2] ، وللإنسان

---

(١) كانت أوربا فى الواقع متزمتة فى شأن هذه العلاقات بتأثير الرهبانية التى ابتدعها النصارى دون تكليف من الله : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناهم عليهم ﴾[سورة الحديد : ٢٧] .

(٢) سبقت الإشارة إلى أن الداروينية الحديثة رغم اعتقادها بمبدأ التطور تقرر تفرد الإنسان .

أهداف فى حياته غير أهداف الحيوان ، وسلوك كذلك غير سلوك الحيوان .

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[1] .

وعلاقات الجنس – ككل شيء فى حياة الإنسان – ذات غاية « إنسانية » ، وضوابط كذلك « إنسانية » .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[2] .

أما نزوة الجسد فهى من خصائص الحيوان . وأما السكن والسكينة والمودة والرحمة فهى من خصائص الإنسان .

وقد لزم – فى علم الله العليم الحكيم – لكى تتحول نزوة الجسد الحيوانية إلى سكن وسكينة ومودة ورحمة أن تكون لها ضوابط إنسانية ، وأن تترتب عليها تبعات ، فحدد لذلك الحدود ، وقال سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾[3] وفى داخل تلك الحدود ، التى حددها الله بعلمه وحكمته ، تتحقق سكينة الجسد وسكينة النفس ، ويوجد المحضن الآمن الذى يتربى فيه النشء الجديد ليعمر وجه الأرض ، وتتحقق سكينة المجتمع بتضييق مدى الجريمة ، وتأمين الناس على أعراضهم وأرواحهم ، كما تتحقق النظافة اللائقة بالإنسان .

---

(١) سورة ص [٧١-٧٢] .

(٢) سورة الروم [٢١] .

(٣) سورة البقرة (١٨٧) .

وثبتت الشريعة المنزلة هذه الحدود ، لأنها هى السبيل الوحيد لتحقيق هذه الأهداف ، ولأنها كلما خولفت - خلال التاريخ - حدثت الفوضى التى نرى نموذجا منها اليوم ، وحدثت الاختلالات .

وكما ثبتت الشريعة طريقة اللقاء بين الجنسين ، فحددته فى الزواج ، دون المسافحة ولا اتخاذ الأخدان(١) :

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾(٢) .

أقول : كما ثبتت الشريعة طريقة اللقاء بين الجنسين ، حددت كذلك كل ما يترتب على هذه العلاقة ، وما يقع فى داخلها بأحكام ثابتة غير قابلة للتغيير ، لأنها ترتكز على ثوابت غير قابلة للتغيير .

ومما تجادل فيه الجاهلية المعاصرة - بتأثير « قضية المرأة » وطلبها المساواة الكاملة مع الرجل فى كل شيء - قضية القوامة وقضية الميراث ، وتنادى الجاهلية المعاصرة بوضع كلتا القضيتين على الخط المتغير بحجة التطور الذى شمل كل شيء فى الحياة !

فأما فى قضية القوامة ، فإن المرأة المسترجلة التى سعت الجاهلية الحديثة إلى تنشئتها لأمر يراد ، قد تعلمت وعملت ، وشغلت

---

(١) المسافحة هى البغاء واتخاذ الأخدان لون خاص من البغاء هو ما تتخذه الجاهلية المعاصرة باسم « الصداقة » Boy Friend و Girl Friend .

(٢) سورة المائدة [٥] .

الوظائف العامة ، ولم تستطع مع ذلك أن تغير طبيعتها العاطفية التى خلقها الله بها لتوفى مطالب الطفولة ، والله أعلم وأحكم من أن يخلق جنسين متماثلين، ثم يفرق بينهما فى الوظيفة وفى التكوين الجسدى والحيوى ! إنما اقتضت حكمته سبحانه حين حدد لكل من الجنسين وظيفة ، أن يخص كلا منهما بخصائص حيوية ونفسية تلائم وظيفته ، ولا عبرة بوجود امرأة بين ملايين النساء تسمى « المرأة الحديدية » أو الفضية أو النحاسية ! فالأحكام تلحق بالعموم لا بالحالات الشاذة التى لا يقاس عليها(١) ! وقضية القوامة فرع عن قضية التكوين الجسدى والحيوى والنفسى ، لا تتغير حتى تفسد الفطرة ، وحين تفسد الفطرة يعم الفساد فى الأرض .

وأما قضية الميراث فهى ناشئة كذلك عن توزيع الوظائف وتوزيع التكاليف .

الرجل هو المكلف بالإنفاق - إلزاما لا تطوعا - والمرأة لا تكلف بالإنفاق ، فإذا تطوعت بذلك من عند نفسها فليس ذلك تكليفا ترتب عليه تبعات . والفريق الذى كلفه الله بالإنفاق أعطاه نصيبين ، أما الفريق الذى لم يكلف بالإنفاق فقد منحه الله نصيبا واحدًا لذات نفسه ، ثم قال تعالى :

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾(٢) .

---

(١) راجع « ألكسيس كاريل » ، الإنسان ذلك المجهول ، ترجمة شفيق أسعد ، بيروت ، ط٣ ، خاصة ص ١٠٨ حيث يقول : « إن كل خلية فى حسم المرأة تحمل طابع جنسها » .

(٢) سورة النساء [٣٢] .

ومن فضل الله على العباد أنه يدخل الناس الجنة لا على قدر أموالهم ، ولا على قدر وظائفهم فى الحياة الدنيا ، إنما على قدر ما يتعبدونه بالطاعة والإخبات .

* * *

تلك أمور ثبتت الشريعة أحكامها ولم تجعلها قابلة للتغيير ، ولا يدخل تحتها كذلك متغيرات ، لأن التغيير فيها يحدث من المفاسد ما نرى بعض آثاره فى واقع العالم المعاصر ، مما هو مشهود ومشهور .

ولكن هناك أمورا أخرى - كثيرة - يعلم الله أنها تتغير ، ولا يريد الله لها أن تجمد عى حالة معينة ، هى حالتها وقت نزول هذه الشريعة المباركة .

ولم يكن غائبا عن علم الله وحكمته - كما يتصور المجادلون بوعى منهم أو بغير وعى - أن حركة الإنسان فى الأرض ، واحتكاكه الدائم بالكون المادى ، وسعيه إلى تسخير طاقاته ، وسعيه إلى تصنيع خاماته ، وتحسين أدواته ، وتجميل وسائل حياته ، سيقوده إلى إحداث تغييرات مستمرة فى صور حياته : السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

والله هو الذى خلق الإنسان ، وأودع فيه ما أودع من طاقات ونزعات ، وهيأه بذلك لعمارة الأرض والقيام بدور الخلافة فيها :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾(1) .

ويريد الله للإنسان أن تكون حياته مثمرة نامية مباركة :

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾(2) .

---

(1) سورة هود [61] .

(2) سورة الملك [15] .

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾[1] .

وحيث سبق ذلك فى علم الله ، وفى حكمته ، وسبق فى علمه كذلك وحكمته أنه سينزل رسالته الخاتمة على خاتم النبيين ﷺ ولن يرسل رسولا بعده ، وسيكلف البشر بإقامة تلك الشريعة - بعد كمالها[2] - إلى آخر الزمان ، فقد اقتضت حكمته سبحانه أن ينزل فى تلك الأمور المتغيرة أصولا ثابتة تتسع للصور المتغيرة وتضبط حركتها فى الوقت ذاته .

تتغير الصورة السياسية ، بتغير حجم الدولة وطريقة إدارتها ، وتغير وضع الفرد من كونه فردا فى قبيلة إلى كونه فردا فى أمة ، وتغير مدى استقلاله بفرديته وممارسة حياتها من خلالها ، واعتبارات أخرى جمة متشابكة ، فتتغير بذلك صورة الحكم وتنظيماته ولكن لا تتغير الأصول الثابتة التى تحكم « السياسة الشرعية » : تحكيم شريعة الله ، والبيعة ، والشورى ، والسمع والطاعة من الرعية لولى الأمر فى حدود طاعة ولى الأمر لله ورسوله ، والنصح من الرعية لولى الأمر عملا بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بما تحدده الآيات القرآنية والأحاديث النبوية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[3] .

---

(١) سورة فصلت [١٠] .

(٢) قال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ [سورة المائدة : ٣] .

(٣) سورة النساء [٥٩] .

« الدين النصيحة . قلنا : لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »[1] .

« إنه كان لكل نبى كان قبلى حواريون يهتدون بهديه ويأتمرون بأمره ، ثم إنه تخلف من بعد ذلك خلوف ، يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن . ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن . ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[2] .

« إنه يكون عليكم أمراء فتعرفون منهم وتنكرون . فمن أنكر فقد سلم ومن كره فقد برئ ولكن من رضى وتابع »[3]
إلخ .. إلخ ..[4] .

أما شكل الحكم .. وأما طريقة الشورى .. وأما توزيع المسئوليات بين الحاكم ونوابه ومعاونيه ... وأما طريقة تولية الحاكم وطريقة تنحيته إذا استوجب الأمر تنحيته ، فكلها أمور قابلة للتغيير ، بما يتفق مع أحوال كل أمة وكل عصر .

* * *

وتتغير الصورة الاقتصادية بتغير أدوات الإنتاج وتقدم العلوم والتكنولوجيا، ومدى تسخير الإنسان لطاقات الكون المادى بما يفتح الله له من أبواب المعرفة .. واعتبارات أخرى كثيرة متشابكة . ولكن لا تتغير الأصول الثابتة التى تحكم سياسة المال : أن المال مال الله ، والبشر مستخلفون فيه ، ومأمورون أن ينفذوا فيه شرع الله . وأنه

---

(١) أخرجه مسلم
(٢) أخرجه مسلم .
(٣) أخرجه مسلم .
(٤) تراجع كتب السياسة الشرعية ككتاب الماوردى وغيره .

لابد من نظافة المال فى المأخذ فلا غصب ولا سرقة ولا غش ولا ربا ولا احتكار ولا أكل لمال الأجير .. ولا بد من نظافته فى الإنفاق فلا ينفق فى سرف ولا ترف ولا مخيلة ولا فى محرم .. ولابد من أداء زكاته ، ثم الإنفاق منه فى سبيل الله لا تكلف نفس إلا وسعها .

أما شكل العمليات الاقتصادية ومواضع المشاركين فيها فهى عرضة للتغير الدائم بحسب الأحوال .

* * *

وتتغير الصورة الاجتماعية ، فيكون المجتمع قبليا ، وحدته هى القبيلة ، ورئيس القبيلة هو نائبها وممثلها وولى أمرها الذى تأتمر بأمره ، ويمارس الفرد وجوده من خلال القبيلة ، أو يكون المجتمع أمة ذابت فيها الكيانات القبلية فأصبح الفرد يمارس وجوده فردا ويمثل نفسه بنفسه .. ويقوم البيت بالتربية والتوجيه مستقلا أو تشاركه مؤسسات أخرى كالمدرسة ووسائل الإعلام ، أو تقوم المؤسسات بالدور الأكبر وتظل للبيت روابطه العاطفية .. ويكون البيت أسرة كبيرة يعيش فيها الوالدان والأبناء ، والجدود والأحفاد ، أو أسرة صغيرة تقتصر على الوالدين والأبناء .. الخ .. الخ ولكن تبقى الأصول الثابتة للعلاقات الاجتماعية :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[1] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾[2] .

---

(١) سورة الحجرات [١٠] .

(٢) سورة الحجرات [١١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ (1) .

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ (2) .

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ (3) .

* * *

وحين تتغير الصورة : السياسية أو الإقتصادية أو الاجتماعية ، تحتاج إلى أحكام جديدة مستمدة من الشريعة . والوسيلة الشرعية لذلك هى الاجتهاد فيما ليس فيه نص . وهى المزية الكبرى لهذه الشريعة ، التى تجعلها صالحة لاستيعاب ما يجدّ فى حياة الناس ، وربطه بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة لا يند عنها شىء .

والاجتهاد مأذون به بل مأمور به :

﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (4) .

سأل رسول الله ﷺ معاذا –رضى الله عنه– وهو يوليه على اليمن : كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بكتاب الله . قال : فإن لم تجد فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسوله ﷺ . قال :

---

(1) سورة الحجرات [12] .

(2) سورة النساء [36] .

(3) سورة المائدة [2] .

(4) سورة الحشر [2] .

فإن لم تجد فى سنة رسول الله ﷺ ؟ قال : اجتهد رأيى . فضرب رسول الله ﷺ على صدره موافقا ومؤيدًا لما يقول[1] .

وللاجتهاد شروطه المعروفة من علم بالفقه وعلم بالأصول وعلم بالآلـة (اللغة) وبصر بأحوال الناس وقدرة على الاستنباط واستقامة فى الخلق وأمانة فى الدين . ولكنه أولا وأخيرا أداة ربانية زود الله بها هذه الأمة لتظل تحت مظلة الشريعة لا تخرج عنها ولا تستبدل بها حكم الجاهلية ، ولتتحرك الحركة المنضبطة ، فلا تجمد فى مكانها حيث تقتضى حركة الحياة أن تتقدم ، ولا تنفلت فى حركتها فتخرج عن مقاصد الشريعة ، فيحدث الفساد فى الأرض .

وحصيلة الاجتهاد الدائمة : صور متغيرة تدور حول محاور ثابتة . سنة الله فى الخلق كله وفى حياة الإنسان . فتلتقى الشريعة المنزلة فى نسق واحد مع الكون والحياة والإنسان .

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2]

---

(١) رواه أبو داود .

(٢) سورة ص [٢٩] .

المبحث الرابع

شبهة تعارض أحكام الشريعة مع مقتضيات الحضارة الحديثة ووجوب الأخذ بمعايير الحضارة دون الشريعة

ألمحنا فى المبحث الثالث إلى بعض جوانب هذه القضية : قضية تعارض أحكام الشريعة مع مقتضيات الحضارة الحديثة . فهى فى صميمها فرع عن قضية التطور التى تفترض أن كل جديد هو بالضرورة خير من كل قديم ، لمجرد أن هذا جديد وذاك قديم ، لا لمزية موضوعية فى هذا ليست موجودة فى ذاك ! وإذ كانت الحضارة القائمة اليوم « حديثة » فهى بهذا الاعتبار خير من كل قديم سبق .. ولو كان منزلا من عند الله !

وقد نشأ هذا الوهم فى أوربا من مجموعة من العوامل بعضها حق وكثير منها باطل . ولكنه وَهْمٌ ركب الناس وهم فارّون من شبح الكنيسة المزعج ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾[1] ! ولو لم يكونوا فى حالة فرار ، ولو لم يكن قسورة وراءهم ، فلربما كانوا يتعقلون فى هذا الأمر – وفى أمور كثيرة غيره – فلا يتصرفون بلا وعى كما يتصرفون الآن ، ثم يبثون أوهامهم – بسيطرتهم العسكرية والاقتصادية والسياسية والعلمية – على بقية الأرض .

(١) سورة المدثر [٥٠–٥١] .

حقيقة إن العصر الذى ساد فيه الدين الكنسى المحرف كان عهد ظلام فى أوربا ، كما يصفون هم بحق عصورهم الوسطى المظلمة . وإن العصر الذى تلا ذلك ، وانحسر فيه سلطان الكنيسة وسلطان ذلك الدين كان عهد نور وتفتح ، وعهد تقدم فى كل ميادين الحياة ، وعهد قوة وسيطرة بالنسبة لأوربا خاصة .

وقد فهمت أوربا من ذلك أن « الدين » هو سبب التأخر ، وأن الحضارة التى لا تقوم على الدين هى سرُّ الفلاح فى الدنيا ، وهى التى تحوز للإنسان كل أسباب القوة والتقدم والرقى .

وقد نحاول أن نلتمس الأعذار لأوربا فى طغيان الكنيسة الجائر الذى مارسته على الناس فى كل مجالات الحياة ، فكان منه طغيان روحى وطغيان مالى وطغيان سياسى وطغيان عقلى وطغيان علمى .. وكان يحصى على الناس حتى خطرات نفوسهم التى لا يبوحون بها ، ويعذبهم على يد محاكم التفتيش عند أول شبهة تقوم حول ولائهم للكنيسة ومعتقداتها .. وقد نحاول أن نلتمس لها الأعذار مرة أخرى فى أن النموذج الإسلامى – الذى كان قمينا أن يصلح الحياة فى أوربا لو اعتنقت الإسلام – قد شوهت الكنيسة صورته فى نفوس الأوربيين ببشاعة حين خشيت من تأثير التوغل الإسلامى فى شرق أوربا ، كما خشيت من تأثير « الغزو الفكرى » الإسلامى ، العائد مع المبتعثين الأوربيين إلى بلاد الإسلام ومعاهد العلم الإسلامية .

يقول المؤرخ الإنجليزى ويلز فى كتابه « معالم تاريخ الإنسانية » : « ولو تهيأ لرجل ذى بصيرة نفاذة أن ينظر إلى العالم فى مفتتح القرن السادس عشر ، فلعله كان يستنتج أنه لن تمضى إلا بضع

أجيال قليلة لا يلبث بعدها العالم أجمع أن يصبح مغوليا – وربما أصبح إسلاميا » ![1] .

ولكن أوربا على أى حال قد أخطأت فى تصورها من جانبين فى آن واحد . الجانب الأول هو تصورها للدين الكنسى المحرف على أنه هو « الدين » . وأن الخيار الوحيد أمامها هو إما البقاء فى ذلك الدين مع الظلم والظلام والتأخر ، وإما الحياة بلا دين (وذلك بعد أن عجزت حركات « الإصلاح الدينى » عن إحداث تغيير جوهرى فى جوهر المشكلة) . والجانب الآخر هو تصورها – بعد ما خرجت من الدين – أن التمكين فى الأرض هو الغاية القصوى التى خلق الإنسان من أجلها ، وأنه إذا حققها بأية وسيلة فقد فاز ! وذلك تصور جاهلى من جميع أبعاده . فلا التمكين فى الأرض – بأية وسيلة – هو غاية الوجود البشرى ، ولا تحقيقه – وحده – علامة على « التفوق » بالمعيار الإنسانى اللائق بالإنسان !

إن الله يعطى التمكين فى الدنيا للكافر وللمؤمن معاً إذا توفرت من جانبه أسباب التمكين :

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[2] .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾[3] .

(1) ويلز ، معالم تاريخ الإنسانية ، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ، القاهرة ، ط ٣ ١٩٦٧ م ، ج ٣ ص ٩٦٦ .
(2) سورة الإسراء [٢٠] .
(3) سورة هود [١٥] .

بل إن الله – إذا شاء سبحانه – قد يعطى التمكين فى الدنيا للكافر كلما أوغل فى الكفر ، استدراجا له ليزداد كفرا وليحمل أوزاره كاملة يوم القيامة !

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ .. ﴾[1] .

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[2] .

فليست العبرة بالتمكين فى ذاته ، ولا فى انفتاح أبواب كل شىء للإنسان فى الحياة الدنيا وحدها . إنما خلق الإنسان ليقوم بدور الخلافة الراشدة فى الأرض ، وليعمر الأرض بمقتضى المنهج الربانى . وهذا هو تمكين الرضا الذى يترتب عليه الفلاح فى الدنيا ، وحسن المآل فى الآخرة . كما تحفه البركة والطمأنينة ، ولا يتحقق إلا بالإيمان وتقوى الله :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[3] .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[4] .

---

(١) سورة الأنعام [٤٤] .
(٢) سورة النحل [٢٥] .
(٣) سورة الأعراف [٩٦] .
(٤) سورة الرعد [٢٨] .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1] .

أما التمكين فى الأرض – وحده – وعلى غير المنهج الربانى ، فعلاوة على أنه موقوت بفترة معينة وسنّة معينة ، فهو مبتوت عن الآخرة :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2] .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[3] .

(١) سورة المؤمنون [١-١١] .
(٢) سورة الأنعام [٤٤-٤٥] .
(٣) سورة هود [١٥-١٦] .

وفضلا عن ذلك فلا بركة فى حياتهم ولا طمأنينة .. فهم « يتمتعون » .. ولكن ..

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [1] .

كل هذه المعانى كانت غائبة عن الناس فى أوربا وهم ينطلقون ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ [2] . فكلها معان لا يدركها الإنسان الجاهلى ، الذى قال أقرانه من قبل: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ! ﴾ [3] .

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [4] .

* * *

ثم وقعت أوربا فى وَهْمٍ جاهلى آخر ..

ذلك أنها حين خرجت من أسر الكنيسة الجائر أخذت تتعلم .. وكان العلم فى ذاته صراعا هائلا مع الكنيسة التى حرّقت العلماء وعذبتهم لأنهم قالوا بكروية الأرض ، وخالفوا بعلمهم «معلومات» الكنيسة ، أو بالأحرى خرافاتها التى كانت تحرص عليها جهالة منها ، وتبثها باسم الدين[5] . ونشأ من هذا الصراع افتراق طريق العلم عن

---

(١) سورة محمد [١٢] .

(٢) سورة المدثر [٥٠-٥١] .

(٣) سورة سبأ [٣٥] .

(٤) سورة العنكبوت [٤٣] .

(٥) كان من أهم أسباب وقوف الكنيسة فى وجه العلم أنه كان علماً إسلامياً فى مصدره ، وكان يهدد بتحول أوربا إلى الإسلام كما أشرنا من قبل ، وهذا السبب تخفيه

طريق الدين بغير موجب « موضوعى » ، ووقوف العلم والدين فى حس الأوربيين موقف التضاد والتقابل ، فمن أراد العلم أهمل الدين (أو عاداه) ومن أراد الدين أهمل العلم، وانفصلت بذلك فى نفس الغربى نزعتان توأمتان : نزعة العبادة لله وهى فطرة : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾[1]

ونزعة المعرفة وهى كذلك فطرة أودعها الله فى الإنسان ليقوم بدور الخلافة فى الأرض : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[2] ﴿ عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[3] . وأفسد هذا الصراع طمأنينة النفس إلى خالقها وهى تتدبر آيات الله فى الكون ، وتتعرف على خواص الكائنات لتحقق التسخير الربانى لما فى السموات والأرض ليكون فى متناول الإنسان : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[4]

تقدم العلم فى أوربا بما تعلمته فى مدارس المسلمين أولا ، وكان أبرز ما تعلمته هو المنهج التجريبى فى البحث العلمى . ثم تقدم ثانيا بما بذل الأوربيون من جهد جبار فى ميدان التجربة والبحث ، مع الجلد والمثابرة وعبقرية التنظيم .. ولكنه فى كل خطواته كان معاديا للدين بسبب حماقة الكنيسة الكبرى فى معاداة العلم والعلماء .

وألقى العلم ثماره الجنية على الساحة الأوربية فتقدمت العمارة المادية للأرض تقدما هائلا ، وارتقت أحوال الناس المادية وانتعشت ،

المراجع الأوربية وهى تتحدث عن الصراع بين الكنيسة والعلم ، لأنها لا تحب أن تعترف بفضل الإسلام والمسلمين .

(١) سورة الروم [٣٠] .

(٢) سورة البقرة [٣١] .

(٣) سورة العلق [٤-٥] .

(٤) سورة الجاثية [١٣] .

واكتسبت أوربا قوة مادية فتحت بها الأرض وسيطرت عليها ، فعاد عليها ذلك بمزيد من الثروة ومزيد من الرفاهية والتقدم المادى .

وكان هذا الوضع « الحديث » أفضل ولا شك من أوضاع أوربا فى عهود « الظلام » .

ولما كان هذا كله قد تم بعد إقصاء أوربا لدينها والانفلات منه ، فقد وَقَرَ فى وهمها مرة أخرى أن « الدين » هو المعوق عن الحضارة ، وأن الحضارة يجب أن تكون معادية للدين لكى يقطف الناس ثمارها ويستمتعوا بها ، وأن المعيار الذى يعيّر به الرقى البشرى هو « الحضارة » وليس « الدين » .

وهنا وَهْمٌ مزدوج وقعت فيه أوربا وهى تفرّ من غول الكنيسة بلا وعى ولا انطباط .

أحد طرفى الوهم تصورها أن « الدين » من حيث هو ، كان هو المعوق عن الحضارة . بينما كان المعوق عن الحضارة فى الحقيقة هو دين الكنيسة المحرف ، ثم سلوك الكنيسة بذلك الدين المحرف الذى ابتدعته من عندها ولم يتنزل من عند الله بهذه الصورة المحرفة .

والطرف الآخر من الوهم هو تصور أوربا أن الحياة بلا دين أفضل فى جميع الأحوال وفى جميع المجالات من الحياة بالدين ..

وسنسلم بأن حياة أوربا فى ظل دينها كانت سيئة ، وكان لابد لها من التمرد على ذلك الدين لكى تحسن أحوالها السيئة وتخرج من الظلام الدامس الذى كان يكتنف قرونها الوسطى المظلمة .

ولكنا لن نسلم بأن الحياة بلا دين أفضل لأوربا – وللبشرية كافة – من الحياة بالدين الصحيح الذى ينبغى للبشرية كلها أن تدين به .

فقد تقدم العلم ، نعم ، وتقدمت الحياة المادية فى جميع مجالاتها ، نعم ، ولكن انظر نظرة فاحصة إلى « الخلاصة » من هذا كله .. وانظر إلى « الإنسان » هل ارتقى فى مجموعه أم انتكس انتكاسة ربما لم ينتكسها فى تاريخه الطويل كله ...

لقد سيطر الإنسان على « البيئة » كما يقول جوليان هكسلى فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث » الذى سبقت الإشارة إليه فى المبحث الثالث ، وأخذ – فى ظنه – يسيطر على الفضاء[1] . ولكنه لم يستطع أن يسيطر على شهواته ، بل فتح لها المجال بكل عنفوانها ، سواء فى ذلك شهوة الجنس ، أو شهوة « الاستمتاع » عن أى طريق حلال أو حرام ، أو شهوة السيطرة والتسلط والطغيان ..

إن الاستعمار بكل جرائمه وبشاعاته هو ثمرة طبيعية لقيام حضارة جاهلية بلا دين . إنه ليس انحرافا عارضا كان يمكن لهذه الحضارة أن تتجنبه لتحسين سمعتها كما يتوهم بعض المفتونين بهذه الحضارة . إنه نتاج أصيل لها . فحيثما ملك الإنسان القوة ولم يكن يؤمن بالله ورسله ورسالاته فهذا ديدنه خلال التاريخ كله .. يطغى . لأن السلطة تُطْغِى إن لم تردعها وتضبطها مخافة الله وتقواه . ولقد بررت أوربا استعباد الأمم الضعيفة وامتصاص دمائها على نفس النحو الذى كانت الإمبراطورية الرومانية تبرر لنفسها ذلك الأمر.. تشابهت قلوبهم! والسبب دائما واحد.. قوة لا يصحبها دين. وضع إن شئت مقارنة سريعة بين حركة التوسع الإسلامى فى الأرض ، وحركة التوسع الرومانى فى القديم والتوسع الغربى فى الحديث ليتبين لك الفرق . التوسع الإسلامى كان يحرر المستعبدين فى الأرض كما قال ربعى بن عامر فى عبارته البليغة

---

(١) مما ينفى هذا الوهم فزع الناس من اتساع فتحة الأوزون فى الغلاف الجوى وما قد يترتب على ذلك من نتائج مدمرة لحياة الإنسان على الأرض .

البارعة التى رد بها على رستم قائد الفرس حين سأله : ما الذى جاء بكم إلى بلادنا ؟ قال : إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . بينما التوسع الرومانى فى القديم والتوسع الغربى فى الحديث يستعبد الأحرار :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾[1] .

وإن الفساد الخلقى ، وما تبعه من انتشار الخمر والمخدرات والشذوذ والجريمة ، هو ثمرة طبيعية لقيام حضارة جاهلية بلادين . إنه ليس انحرافا عارضا كان يمكن لهذه الحضارة أن تتجنبه لوقاية نفسها من الدمار ، كما يتوهم بعض المعجبين بها ، الخائفين عليها ! إنما هو نتاج أصيل لها . فحيثما وجدت فرص متاحة للمتاع دون ضابط من دين ينظم ذلك المتاع ، كانت النتيجة واحدة .. الإغراق فى الشهوات ، ثم الانحراف .

وإن ألوان الجنون التى طغت اليوم على المجتمع الغربى : جنون الجنس ، وجنون الأزياء ، وجنون الزينة ، وجنون العرى ، وجنون السينما ، وجنون التليفزيون ، وجنون الفيديو ، وجنون الكرة ، وغيرها من ألوان الجنون المخزية ، كلها ثمرة طبيعية لقيام حضارة بلا دين .. إن كانت قد جاءت متأخرة عن بداية قيام هذه الحضارة ، فتلك سنّة طبيعية من سنن الله : التدرج فى كل شىء . لا شىء يأتى فجأة فى أحوال الناس فى الأرض (إلا العقاب الصاعق من عند الله حين يقدره سبحانه) إنما يتم كل شىء بالتدريج ، ولكن على ذات الخط الذى يريده الناس لأنفسهم من البداية . فإن أرادوا الاستقامة على

(١) سورة النساء [٧٦] .

طريق الله يسّر الله لهم الطريق ، وإن أرادوا الانحراف زادهم مما يريدون !

ولا أحد يقول إن هذه الحضارة سوداء كلها بلا بياض! وما كانت هناك قط جاهلية من جاهليات التاريخ سوداء كلها بلا بياض !

نعم ! فيها نقط بيضاء كثيرة متناثرة هنا وهناك . فيها التقدم العلمى . فيها التقدم التكنولوجى الذى أزاح عن كاهل الإنسان أعباء كثيرة وحمّلها للآلة . فيها الجلد على العمل والصبر والمثابرة . فيها عبقرية التنظيم . فيها الروح العلمية العملية فى تناول المشكلات . فيها « أخلاقيات » ، نفعية ، نعم ، ولكنها تجعل التعامل اليومى بين الناس بعضهم وبعض مريحا سهلا خاليا من التعقيد ..

كلها نقط بيضاء فى هذه الجاهلية ، ولكنها لا ترفع عنها صفة الجاهلية لأنها لا تعرف الله حق معرفته ، ولا تعبده حق عبادته(١) . ثم إنها لن تنقذها من الدمار – فى موعده المقدر عند الله – لأنه سنّة حتمية من سنن الله ، تصيب الذين يصرون على تنكب طريقه .. إلا أن يغيّروا ما بأنفسهم فيغير الله لهم :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾(٢) .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾(٣) .

---

(١) هذا هو المعنى القرآنى للجاهلية كما وردت فى مواضع متعددة فى القرآن الكريم : الجهل بحقيقة الألوهية ، وعدم اتباع ما أنزل الله .

(٢) سورة الرعد [١١] .

(٣) سورة الحج [٤٨] .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٣] .

ومن جهة أخرى فلم يكن من الحتم على هذه الحضارة أن تنبذ الدين لكى تتوصل إلى القوة والتقدم العلمى والتكنولوجى ، فقد كان هذا كله ممكنا – كما أمكن للمسلمين من قبل – لو أن أوربا اعتنقت الإسلام .

* * *

ونخلص من ذلك كله إلى نتائج واضحة :

أولا : أن ظروفا معينة فى أوربا هى التى جعلتها تنبذ الدين ، وتقيم عداء بين الدين والحضارة وبين الدين والعلم ، وبين الدين والسياسة ، وبين الدين والاقتصاد .. الخ .

ثانيا : أن أوربا توهمت أن دينها هو « الدين » .. ومن ثم توهمت أن « الدين » هو الذى ينبغى أن يُنْبَذَ ، وأن الحضارة ينبغى أن تقام بلا دين .

ثالثا : أن أوربا حين انفلتت من دينها الفاسد ، وانفلتت فى الوقت ذاته من الضوابط التى تحفظ للإنسان إنسانيته ، واتبعت أهواءها . ثم أقامت على هذا الهوى « حضارة » أعجبتها لأنها تساير أهواءها ثم جعلتها هى الأصل الذى يقاس عليه كل شىء ، ثم قاست الدين على

(٣) سورة الأنعام [٤٤-٤٥] .

هذا الأصل المعتمد عندها فوجدته مخالفا للأصل المعتمد ، فنبذته ، وجعلت نبذه مقياسًا للتقدم والحضارة والرقى ![1] .

رابعا : أن هذا كله خلل فى التصور وخلل فى السلوك أنشأته ظروف معينة فى أوربا ، وليس قانوناً من قوانين الوجود البشرى يسرى على كل البشر بالضرورة !

* * *

ثم ننتقل بالحديث إلى الإسلام .

إن مفهوم « الحضارة » فى الإسلام يختلف اختلافا بيّنا عن المفهوم الغربى ، وإن التقى معه إلتقاء عارضاً فى ضرورة السعى إلى عمارة الأرض .

الحضارة فى المفهوم الإسلامى هى النشاط الذى يقوم به الإنسان فى شتى مجالات حياته ليحقق غاية وجوده .

ومن ثم ينبغى أن نعلم بادىء ذى بدء غاية الوجود البشرى لنحدد بعد ذلك كنه « الحضارة » التى تناسب تلك الغاية وتحققها .

يقول شاعر جاهلى معاصر[2] :

جئت لا أعلم من أين ولكنى أتيت !
ولقد أبصرت قدامى طريقا فمشيت !

---

(١) يكرر « ألكسيس كاريل » فى كتابه « الإنسان ذلك المجهول » (سبقت الإشارة إليه) أن الإنسان المعاصر قد صنع لنفسه حضارة خاطئة بدافع شهواته ، ولكنها لا تناسب تكوينه ، ولذلك فهى فى طريقها للانهيار .

(٢) هو الشاعر إيليا أبو ماضى .

وهكذا انتهت حياته إلى « العبثية » لأنه جهل غاية وجوده . وهو يمثل فى الحقيقة أزمة الجاهلية المعاصرة ، التى تقود تلك الجاهلية إلى الجنون كلما أوغلت فى الطريق .

والإسلام يحدد تحديداً واضحاً غاية الوجود البشرى ، فيضع أمام الإنسان كل شىء فى مكانه الصحيح .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(1) .

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾(2) .

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾(3) .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(4)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾(5) .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾(6) .

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾(7) .

ونفهم من مجموع هذه الآيات وأمثالها أن الإنسان خلق ليعبد الله وأنه خلق ليكون خليفة فى الأرض ، وأنه خلق للابتلاء ، وأنه خلق

---

(1) سورة الذاريات [٥٦] .
(2) سورة الإنسان [٢] .
(3) سورة هود [٦١] .
(4) سورة البقرة [٣٠] .
(5) سورة الملك [١٥] .
(6) سورة الجاثية [١٣] .
(7) سورة البقرة [٣٦] .

لقدر من المتاع يناله فى الحياة الدنيا ، وأنه خلق ليعمر الأرض بالسعى فى مناكبها والأكل من رزق الله ، وبالسعى إلى تسخير طاقات السموات والأرض ..

ولا تعارض بين هذه الأهداف جميعا ، فكلها فى النهاية تلتقى فى مفهوم العبادة فى الإسلام .

لقد خلق الله الإنسان ليكون هو المهيمن المسيطر المنشئ البانى المعمر فى الأرض ، وعلم الله أن هذه المهمة تستلزم أن تكون فى كيان الإنسان مجموعة من الدوافع القوية تدفعه للقيام بهذا النشاط ، حتى لا تقعد به العقبات عن القيام بمهمته : لا البحار ولا الأنهار ولا الجبال ولا البرد ولا الحر ولا الأمراض .. ولكن الله يعلم كذلك أن هذه الدوافع (أو سَمِّها الشهوات) مع لزومها له ، لا تصلح أن يستجيب لها الإنسان إلى آخر المدى لأنها عندئذ تدمره بدلا من أن تعينه على أداء مهمته ، فرسم للاستمتاع بها حدوداً معينة وقال : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ و﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾[1] . وجعل موضع الابتلاء هو هذا : هل يستجيب الإنسان للأمر الربانى ، فيلتزم فى تناوله للمتاع بالحدود التى حددها الله ؟ أم يتجاوز الحدود رغبة منه فى مزيد من المتاع ؟ وجعل ذلك كله هو « العبادة » التى خلقه من أجلها على سبيل الحصر ، المعبر عنه فى الآية الكريمة بالنفى والاستثناء : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ وهما أقوى أدوات الحصر فى اللغة العربية . ثم قدر سبحانه أنه من استجاب لهذه العبادة –

---

(١) يلاحظ أنه حين تكون الشهوة عنيفة يرد قوله تعالى : ﴿ تلك حدود الله فلا تقربوها ﴾ [سورة البقرة : ١٨٧] لأن القرب لا يؤمن معه الزلل . أما الدوافع التى يؤمن الزلل فيها فيجىء فى شأنها ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴾ [سورة البقرة : ٢٢٩] .

بمعناها الواسع الشامل – فإن له الجنة خالدا فيها ، ومن أعرض وعصى واتبع هواه فإن له جهنم خالدا فيها .

تلك هى قصة الإنسان من مبدئه إلى منتهاه .. وهى التى تحدد له كل شىء فى حياته منذ يبلغ سن التكليف إلى أن يلقى الله .

وهى التى تحدد له كذلك مفهوم « الحضارة » التى ينبغى أن يسعى إلى إقامتها .

إنها ليست مقصورة على العمارة المادية للأرض – وإن كانت تشملها – إنما هى على وجه التحديد : عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى . وعندئذ فقط تصبح محققة لغاية الوجود البشرى ، لأنها عندئذ تدخل فى مفهوم العبادة الواسع الذى تشمله الآية الكريمة :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ .. ﴾[1] .

والمنهج الربانى هو هذا الدين !

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾[2] .

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[3] .

ومن ثم فالدين هو الحضارة .. والحضارة هى الإسلام !

وهذا هو الذى فهمه المسلمون وهم يقيمون أروع حضارة فى تاريخ البشرية .. الحضارة التى حررت « الإنسان » من العبودية لغير

---

(١) سورة الأنعام [١٦٢–١٦٣] .
(٢) سورة آل عمران [١٩] .
(٣) سورة آل عمران [٨٥] .

الله . من الجهل والخرافة . من الأنانية والتسلط . من العبودية للهوى والشهوات . من الظلم فى جميع أشكاله : السياسية والإقتصادية والاجتماعية .. ظلم النفس وظلم الآخرين . والتى حررت المرأة وحررت العبيد ، ورفعت الناس إلى المستوى اللائق بالإنسان .

وهى فوق ذلك التى حوت العلم النافع ، وظلت تعلمه للبشرية عدة قرون ، سواء فى مجال العلوم الشرعية أو العلوم الدنيوية التى برعت فيها الأمة الإسلامية يوم كانت تتمسك بدين الله .

* * *

المعيار إذن هو الدين ! هو الإسلام ! لأنه هو الذى يحدد غاية الوجود البشرى ، ويحدد من ثم شكل النشاط الذى يحقق تلك الغاية على أحسن وجه .. وتلك هى الحضارة الحقة اللائقة بالإنسان ..

ما بال بعض « المسلمين » إذن يزوون وجوههم وقلوبهم وأفكارهم عن الحضارة الحقة والمعيار الحق ، ليتخذوا المعيار المختل الذى ابتليت به أوربا لظروفها الخاصة هناك ؟!

لكى نحسن الظن بهم نقول إن واقع المسلمين اليوم ، السيىء غاية السوء ، هو الذى لوى أعناق هؤلاء عن المفهوم الصحيح للحضارة ، فاتخذوا بدلا منه معيار أوربا ، الذى يصور الدين معوقا عن الحضارة ، وينادى بنبذ الدين لكى تتقدم الحياة .

ولكنا مهما أحسنّا الظن بهم لا نستطيع أن نعتذر عنهم !

وكيف نعتذر عن قوم يسمعون كلام الله فيزورون عنه ، ويقولون : سنتخذ المعيار الغربى بدلا من كلام الله ؟! .

* * *

واقع المسلمين اليوم سيىء لا بسبب تمسكهم بالدين ، بل بسبب بعدهم عن الدين . ولهذا فهم غير متحضرين . ويوم كانوا يعرفون دينهم المعرفة الحقة ، ويتمسكون به على بصيرة كانوا هم الأمة المتحضرة فى الأرض . وسبيلهم إلى الحضارة اليوم أن يعودوا إلى دينهم ، فيجدوا فيه كل مقومات الحضارة ، وأولها معرفة الله وعبادته ، واتباع ما أنزل الله .

إن التخلف العلمى والمادى والحربى والسياسى والاقتصادى والأخلاقى ، الذى يشكل فى مجموعه « التخلف الحضارى » ليس هو الداء الأصيل فى هذه الأمة ، كما يتصور الذين يفهمون أن نقل حضارة الغرب إلى الشرق هو الذى سيخلص الأمة من تخلفها ، وينشئها نشأة جديدة !

إن هذا التخلف بكل فروعه وأشكاله إنما هو نتيجة لتخلف العقيدة فى نفوس المسلمين . لأن هذه العقيدة هى التى منحت المسلمين التقدم العلمى والمادى والحربى والسياسى والاقتصادى والأخلاقى .. يوم كانوا مؤمنين حقا بهذا الدين .

فالذين يتخذون واقع المسلمين السيىء ذريعة لتنحية الشريعة الإسلامية ، هم فوق هزيمتهم الروحية والفكرية أمام الغرب ، جاهلون بحقائق التاريخ ، بالإضافة إلى جهلهم بالسنن الربانية التى تحكم حياة البشر على الأرض .

* * *

يقال فيما يقال إن الحدود فى الشريعة الإسلامية مظهر « غير حضارى » ! إن كان يناسب البيئة البدوية التى نزل فيها القرآن ، فهو لا يناسب البيئة المتحضرة التى يعيش فيها سكان العالم الحديث ! ما

أفظع أن تقطع يد السارق ! ما أفظع أن يرجم الزانى ! إنما السجن هو العقوبة المهذبة اللائقة بالحضارة ! أو إن شئتم .. فلا عقاب !

ويقال كذلك فيما يقال : إن الشريعة الإسلامية تظلم المرأة وتأبى عليها ما منحته إياها الحضارة الحديثة من الحريات والحقوق !

وما بنا أن نعيد كلاما قلناه من قبل ونحن نستعرض قضية التطور .

إنما نقول إن هذه الشريعة هى التشريع الوحيد فى الأرض ، الذى أخذ موضوع الجريمة والعقاب من كل زواياه فى آن واحد .

إن الإسلام لا يبدأ بتقرير العقوبة ولا بتوقيع العقوبة .
إنما يبدأ بوقاية المجتمع من الجريمة ، بالإحاطة بمنابعها قبل أن تنبع .

وأول إحاطة هى بالقلب البشرى ذاته ، منبع الخير فى الإنسان إذا صلح ، ومنبع الشر فيه إن فسد :

« ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[1] .

ويوجه الإسلام لهذا القلب جهده الأول والأكبر ، لينقيه ويصفيه ويربطه بالله جل شأنه من خيطى الخوف والرجاء :

﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾[2] .

والأسماء والصفات التى وردت فى كتاب الله ، وفى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، نزلت لتربية هذا القلب وربطه بالله ، فهى تحيط بالقلب البشرى فى جميع أحواله وجميع تصرفاته . إن تَطَلَّعَ

---

(١) متفق عليه .

(٢) سورة الإسراء [٥٧] .

إلى شيء فكل شيء بيد الله . وإن خاف من شيء فكل شيء بيد الله . هو الرزاق . هو المهيمن . هو المدبر . هو الذى بيده مقاليد كل شيء . وهو الغفور الرحيم . وهو الجبار المتكبر. وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده . منه المنشأ وإليه المصير .

وحين يتربى القلب على هذه الصورة فهو لا يتجه أصلا إلى الجريمة ، لأنه يخاف مقام ربه فينهى النفس عن الهوى . ولأنه يشعر بالقناعة بما بين يديه من فضل الله ، فإذا رغب فى الزيادة فعند الله المزيد .

ولا نقول إن التربية الإسلامية تحول الناس إلى ملائكة ، وتنزع نوازع الشر من نفوسهم فلا يعود فى قلوبهم غل ولا حقد ولا غضب ولا سخيمة .. فذلك لا يتحقق إلا فى الجنة :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (1)

إنما نقول على يقين : إن المجتمع الإسلامى – حيثما وجد مجتمع إسلامى حق – هو أقل مجتمعات الأرض جريمة . وإن العامل الأول فى ذلك هو هذه التربية التى تربط القلب بالله ، يحبه ويخشاه .

والإسلام مع ذلك نظام واقعى ، لا يفترض فى الناس المناعة والجو موبوء بالجراثيم . إنما يكافح الجرثومة فى ذات الوقت الذى يربى فيه مناعة القلوب .

---

(1) سورة الأعراف [٤٣] .

فأما السرقة فجرثومتها الجوع والفقر . ويسعى النظام الإسلامى إلى مكافحة الجوع والفقر بتشريعاته وتنظيماته وتوجيهاته جميعا حتى لا يوجد فى الأرض جائع يضطر إلى السرقة بسبب الجوع .

وأما الزنا فجرثومته الفتنة والإثارة والتبرج والخلاعة ، والفراغ من القيم الجادة التى تستوعب مشاعر الناس وطاقاتهم ، والترف والترهل .. والإسلام يمنع ذلك كله ويحاربه ، وفى ذات الوقت يدعو إلى التعجيل بالإحصان - بالزواج - ويدعو إلى تيسيره ، لكى تأخذ الأمور منطلقها الطبيعى ولا يحتاج أحد إلى الجريمة .

وكذلك فى بقية الحدود .. يسعى النظام الإسلامى إلى الإحاطة بمنبع الجريمة قبل أن يلوث الجو بالجراثيم .

ومع ذلك ينظر الإسلام فى كل حالة مفردة : هل ارتكب الجريمة مرتكبها وهو معذور ؟! فإن قامت الشبهة فإن الإسلام يدرأ الحد بالشبهة . ولا يوقع الحد إلا عند التيقن من أن مرتكب الجريمة غير معذور . وهذا هو تصرف عمر رضى الله عنه حين أوقف حد السرقة فى عام الرمادة ، عام الجوع . وحين جىء له بغلمان سرقوا ناقة فلم يقم عليهم الحد ، بل ألزم سيدهم أن يعوض صاحب الناقة بضعف ثمنها عقوبة له على تجويع غلمانه . وقال له : والله لولا أنى أعلم أنكم تستعملونهم فتجيعونهم ، حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل له ، لقطعت أيديهم . فإذ لم أفعل فلأغرمنك غرامة توجعك ! ثم التفت إلى صاحب الناقة فقال : بكم أريدت منك ناقتك ؟ قال : بأربعمائة ، فقال لابن حاطب ، صاحب الغلمان ، اذهب فأعطه ثمانمائة ![1] .

---

(١) من رواية الطبرانى .

والحد فى ذاته أداة للوقاية من الجريمة . فإن شدته الملحوظة قد قصد بها تخويف من تحدثه نفسه بارتكاب الجريمة - وهو غير معذور - فيفكر مرات ومرات قبل أن يقدم على التنفيذ .

ثم إن الإسلام حين يوقع الحد على مرتكب الجريمة - غير المعذور - لا ينبذه من أجل جريمته . إنما الحد كفارة للتطهير :

« .. فمن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا فهو له كفارة »[1] .

لذلك يرد له الإسلام صفحته بيضاء نقية ، فلا يلمز ولا يغمز ولا يغتاب ، ولا توصد فى وجهه الأبواب حتى لا يعود إلى الجريمة من جديد ..

أى تشريع فى الأرض كلها - قديمها وحديثها - أحاط بموضوع الجريمة والعقاب هذه الإحاطة ، فشمله من كل جوانبه ، ووضع له التشريع الأمثل كما فعلت شريعة الله ؟ ومع ذلك يعدلون ؟!

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ؟ ﴾[2] .

أيهما خير ؟ مجتمع نظيف لا تحدث فيه الجريمة إلا شذوذا يستنكر ، أم مجتمع يعج بالجريمة ، تعمل كل الأجهزة على منعها أو حصرها فتتزايد كل يوم ؟!

وأيهما هو المجتمع المتحضر ؟ المجتمع الذى ينادى فيه رئيس الدولة شعبه فيقول : لا يخرج أحدكم وحده بعد الغروب ، ولا يحملن

---

(١) أخرجه البخارى .

(٢) سورة المائدة [٥٠] .

فى جيبه أكثر من ثلاثين دولارًا ، لكى لا يتعرض للمجرمين وقطاع الطريق[1] ، أم ذلك المجتمع الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه »[2] .

* * *

وحديث المرأة والحضارة حديث يطول[3] . ولكنا نختصره فى كلمات .

لقد كانت المرأة مهينة حقًّا فى المجتمع الغربى ، لا نعامل على أنها إنسانة ، وتحرم من كثير من الحقوق . ويتجادل بعض الفلاسفة فى شأنها : هل لها روح أم ليس لها روح ؟ وإن كان لها روح فهل هى روح إنسانية أم حيوانية ؟ وإن كانت روحًا إنسانية فهل هى من نفس مستوى روح الرجل أم أقل !

وكان للرهبانية التى ابتدعتها الكنيسة أثرها فى نظرة المجتمع إلى المرأة على أنها أحبولة الشيطان ، التى ينبغى أن يحجر عليها كل الحجر ، لتضييق منافذ الشيطان ، ويُزْرَى بها كل زراية لكى ينخنس الشيطان فى داخلها ولا يخرج إلى قلوب الرجال فى الطريق .

وثارت المرأة – أو أثيرت لأمر يراد – وتحررت – أو تحللت – من جميع القيود .. فخرجت الفتنة هائجة فى الطريق ، كما هو مشهود فى الغرب ، مما لا يحتاج إلى بيان .

---

(١) من نداء وجهه الرئيس ريجان ، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، إلى شعبه وقت توليته ، ونشرته الصحف فى حينه .

(٢) أخرجه البخارى .

(٣) انظر إن شئت « مذاهب فكرية معاصرة » فصل « دور اليهود » .

ولكن عبرة الحديث أن المرأة فى الغرب قد بدأت تتنبه أخيرا إلى أن الرجل قد أطلقها ليعبث بها وبكرامتها وإنسانيتها ، ويستغلها تجارة رابحة عن طريق إثارة الغرائز وتهييج الشهوات. كما أطلقها ليتخفف من شطر من تبعاته وتكاليفه ، ويحمّلها للمرأة « المتحررة » ! فبدأت بعض « العاقلات » يدعون المرأة إلى الرجوع إلى مملكتها التى هجرتها – إلى بيتها – وإلى مهمتها الكبرى التى أهملتها وهى شاردة تبحث عن وسائل البهجة والمتاع ، وهى رعاية النشء الذى تشرد وضاع حين فقد البيت المستقر ، والأم المتفرغة .. كما تبين ذلك من خلال لقاءات قام بها التليفزيون الفرنسى على مدى عام كامل مع فريق من النساء العاملات ، اللواتى يحتل معظمهن مراكز مرموقة فى المجتمع ، فرد أكثرهن بأن أمنيتهن الكبرى أن يعدن إلى البيت ويتركن ما حُمِّلْنَه من أعباء ! كما قامت مظاهرة نسائية فى أمريكا احتجاجا على عرض ملابس المرأة الداخلية فى واجهات المحلات على أجساد « المانيكان » لأن فيه إهانة للمرأة وتدنيسًا لكرامتها .

والإسلام هو الذى أعطى المرأة كرامتها الإنسانية ، وحررها من ظلم الجاهلية وصانها فى الوقت ذاته من التبذل الذى سيقت إليه المرأة الغربية ثمنا للحصول على حريتها . وما تزال المرأة فى بعض بلاد الغرب « المتحضر » لا تستطيع أن تتعامل تعاملًا مباشرًا فى شئون من شئون الحياة أعطاها الإسلام حق التعامل المباشر فيها ، ولا تزال تفقد اسمها حين تتزوج ويصبح اسمها « مدام فلان » ! التى يقال إن أصلها التاريخى هو الملكية التامة وحرية التصرف[1] ! .

(١) تقول بعض المعاجم اللغوية الأوربية إن الأصل فى كلمة « مدام » Madame هو My Domain أى ممتلكات الإنسان التى يملك السلطة الكاملة عليها ! ولا نملك نحن إثبات هذا المعنى ولا نفيه ، وإن كان واقع الحياة الأوربية فى العصور الوسطى يظاهره !

أما الإسلام فيقرر مساواة الرجل والمرأة فى الإنسانية ، وفى الجزاء فى الآخرة :

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ (1) .

ولا ينظر الإسلام إلى المرأة المؤمنة على أنها شيطان ، وإنما هى شريكة فى بناء المجتمع على أسسه القويمة :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (2) .

والذى يريده « الحضاريون التطوريون » فى الحقيقة ليس هو تحرير المرأة ، ولا الحفاظ على كرامتها ، إنما هو إشاعة الفاحشة فى المجتمع ، لينتهبوا من اللذات ما يشاءون بلا حاجز ولا رقيب . وأولئك هم الشياطين !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (3) .

---

(1) سورة آل عمران [١٩٥] .

(2) سورة التوبة [٧١] .

(3) سورة النور [١٩] .

أما ما يشيع فى المجتمع المسلم اليوم من مظاهر جاهلية تجاه المرأة فعلاجه العودة إلى المنهج الربانى الصحيح ، وليس علاجه الانفلات مع الحضاريين التطوريين ، الذين يسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب الفساد .

المبحث الخامس
شبهة عدم إمكان تطبيق الشريعة بسبب وجود الأقليات غير المسلمة

معنى هذه الشبهة بعبارة صريحة أن الأقلية تملك منع الأغلبية من ممارسة دينها !

فمتى كانت هذه فى التاريخ كله .. وعلى أى أساس تقوم ؟!

متى كان من حق أى أقلية فى التاريخ البشرى كله أن تتحكم فى الأغلبية ، وتقول لها لا تمارسى دينك الذى تؤمنين به لأن فى ذلك عدوانا على كياننا ، أو عدوانا على حقوقنا ؟!.

ولنأخذ حال الأقليات المسلمة فى بلاد الأرض فى واقعنا المعاصر .

إن أقلية واحدة من الأقليات المسلمة فى الأرض لم تقم – بداهة – بمطالبة الأكثرية الحاكمة بالكف عن ممارسة دينها ، مجاملة لوجودها بين ظهرانيها ..

ولكنا نريد أن نفترض هذا المستحيل ! فكيف يكون رد الفعل لدى الأكثريات الحاكمة فى العالم، لو تقدمت أقلية مسلمة بمثل هذا الطلب العجيب ؟!

إنى أتصور رد الفعل الفورى فى آسيا وأفريقيا مذابح للمسلمين تسيل فيها الدماء كالأنهار . وأتصور رد الفعل فى العالم « الحرّ ! » مظاهرات صاخبة تطالب بإخراج المسلمين من البلاد !

وليس هذا التصور خيالا بلا حقيقة .

ففى الهند تقوم المذابح بالفعل للمسلمين الهنود ، لا لأنهم – معاذ الله – تقدموا بطلب جنونى مثل هذا الطلب ، إنما فقط لأنهم مسلمون ! فمجرد أنهم مسلمون يثير عليهم حفيظة الوثنيين الهنود عباد البقر ، فيهجمون عليهم ، فيقتلون من يقتلون منهم ، ويحرقون عليهم دورهم ، ثم ينصرفون آمنين لا ينالهم عقاب !

وفى الفلبين جاء النصارى فأخرجوا المسلمين من أرضهم الغنية ، واضطروهم إلى أرض جدبة مجهدة ، ثم لم يكفوا حتى هذه اللحظة عن مضايقتهم ليخرجوهم مما بقى فى أيديهم من الأرض ، وتُوَجَّه القوات النظامية لقتالهم بوصفهم « متمردين » .. متمردين بدينهم ! أى بكونهم مسلمين[١] !

وفى العالم الشيوعى – فى روسيا والصين – جرت المذابح الجماعية فى أبشع صورها ، وقتل الملايين من الناس جهرة لمجرد أنهم مسلمون ، وسميت تلك المذابح الجماعية « حركات تطهير » !

أما إفريقيا فلا يقل حالها سوءا عن ذلك .

ولنأخذ نموذجا من الحبشة .

---

(١) كانت الفلبين منذ قرون طويلة أرضاً إسلامية ، ثم طمعت الصليبية فى ضمها إليها ، وعرض « ماجلان » على البابا أن يقود حملة تتولى ضم الفلبين إلى ملك النصارى فعارض البابا فى ذلك ثلاث مرات لعدم ثقته بإمكان ذلك لقوة شكيمة المسلمين وتمكنهم فى الفلبين ، فلما ألح ماجلان ، وزعم قدرته على تنفيذ مقترحه وافقه البابا فى المرة الرابعة ، فصحب حملته الصليبية التى ندرس نحن لأبنائنا – بتأثير الغزو الفكرى – أنها كانت رحلة علمية استكشافية ، ونزل ماجلان على إحدى الجزر الفليبينية المسلمة وتجرأ فرفع على أرضها شارة الصليب ، فقتله المسلمون ، وندرس نحن لأبنائنا – بتأثير الغزو الفكرى كذلك – أن « المتبربرين » فى الفلبين قتلوه لأنهم لم يقدروا رحلته العلمية الاسكشافية !!

يظن كثير من الناس أن المسلمين أقلية فى الحبشة . وهذا الظن ذاته له دلالة ! فلولا الخسف الذى يحيط بالمسلمين هناك ، والذل الذى يرهقهم ، ما توهم أحد أنهم أقلية ، فى حين أنهم يبلغون خمسة وستين فى المائة من مجموع السكان (وذلك قبل ضم أريتريا إلى الحبشة وأغلبيتها الساحقة من المسلمين) ! ثم سعت الحبشة التى يحكمها النصارى رغم أغلبيتها المسلمة ، سعت إلى ضم أريتريا المسلمة لإذلال المسلمين ، وإجلائهم عن دينهم وعقيدتهم ، فقتلت منهم مئات الألوف ، ومازالت تقتل ، وشردت الملايين .. لمجرد كونهم مسلمين !

وأما فى الحبشة ذاتها « فالأغلبية » المسلمة محرومة من حقوقها السياسية حرماناً كاملاً ، فمن حقها أن تكون هى الحاكمة بحكم أنها هى الأغلبية ، فلا تمكّن من ذلك ، ثم لا يكون منها وزير فى الحكم ، ولا رجل فى منصب حيوى . ولا يدرس لأبنائهم الإسلام فى مدارس الدولة التى يشرف عليها النصارى ، ولا يتاح لهم أن يفتحوا مدارس لتعليم أبنائهم القرآن والدين ، إلا « الكتاتيب » التى تظل الدولة ترهقها بالضرائب حتى تغلقها ، ويحرّم على الأحباش المسلمين تلقى المعونات المالية من الخارج للقيام بفتح المدارس الإسلامية لتعليم المسلمين وتثقيفهم ثقافة إسلامية .

كل ذلك وهم أغلبية .. فكيف لو كانوا أقلية .. وكيف لو نادوا – وهم أغلبية – بمنع الأقلية النصرانية الحاكمة من ممارسة دينها ؟ كيف تكون المذابح هناك ؟!

وكانت زنجبار دولة مسلمة فى أفريقيا ، فضاق النصارى بوجودهم ، لمجرد كونهم مسلمين ، فهجموا عليهم ذات يوم من الأيام السود ، فذبحوا ثلث السكان ذبحًا، وضموا من بقى حيا – مع الهوان والذل – فى دولة حكمها فى يد النصارى ، سميت « تنزانيا » بعد أن

كان اسمها « تنجانيقا » إثباتا لذكرى اغتيال زنجبار ، بإبقاء حرفين من اسمها فى اسم الدولة الجديدة !![1] .

كما أن أفريقيا مملوءة بالدول ذوات الأغلبية المسلمة ، التى يحكمها النصارى – وهم الأقلية – ظلما وعدوانا على مسمع من « العالم الحر ! » بل بتحريض وسند من ذلك العالم « الحر ! » .

أما العالم الحر ذاته فاسمع عنه الأعاجيب !

تقوم فى فرنسا اليوم دعوة متزايدة يتزعمها « لوبان » أحد المرشحين لتولى الحكم فى فرنسا ، تنادى بطرد المسلمين من فرنسا ، وارتكبت تلك الحركة أعمالا وحشية ، فألقت بخمسة من المسلمين من قطار « المترو » أحياء ، أثناء سير القطار، فقتلوا على التو . وتهاجم مظاهراتهم المسلمين –والنساء المحجبات خاصة – فى طرقات باريس ، مدينة النور ، وإحدى كبريات عواصم « العالم الحر »! هذا والمسلمون فى فرنسا هم الأغلبية الثانية بعد النصارى ، ويبلغ عددهم خمسة ملايين .

وفى بريطانيا تقوم الدولة بحماية الأفّاق الذى كتب كتاب « آيات شيطانية » يسب فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته وأهل بيته سبا مقذعا ليس فيه شيء من تهذيب « الفن » ولا أدب « العلم » ولا لياقة « الذوق » .. وحين يحتج المسلمون على نشر الكتاب تقول لهم الدولة بعبارة صريحة : تلك قوانيننا « الديمقراطية » فمن لم تعجبه أحوالنا فليخرج من بلادنا .. هذا والمسلمون هم الأغلبية الثانية بعد النصارى ولا يقل عددهم عن ثلاثة ملايين ، وفيهم

(١) التاء والنون فى اسم الدولة الجديدة « تنزانيا » يرمزان إلى تنجانيقا ، والزاى والنون يرمزان إلى زنجبار ، وبقية الأحرف وهى الياء والألف الأخيرتان هما من دواعى « توليف » الاسم الجديد ، ولكنهما مشتقان من أصل « تنجانيقا » ولا صلة لهما بزنجبار .

عدد غير قليل من البريطانيين الذين دخلوا - طواعية - فى دين الإسلام .

كيف إذن لو قامت أقلية إسلامية تنادى بذلك المنكر ، وهو منع الأكثرية الحاكمة من ممارسة دينها لوجود الأقلية المسلمة بين ظهرانيها ؟!

* * *

إنها دعوى منكرة لا سابقة لها فى التاريخ !

وقد ظلت الأقليات غير المسلمة تعيش فى كنف الدولة المسلمة المطبقة لشريعة الله ثلاثة عشر قرنًا كاملة ، لا تشكو ، ولا تفكر فى الشكوى ، ولا تجد مبررا للشكوى .. حتى وصل المسلمون إلى حضيض ذلتهم ، فبرزت تلك الدعوى إلى الوجود !

والأقليات غير المسلمة لا تضع الدعوى فى صورتها الصريحة بطبيعة الحال - وهى منع الأكثرية المسلمة من ممارسة دينها - لأنها لن تجرؤ على ذلك فى البلاد « الإسلامية » مهما وصل استضعاف المسلمين !

إنما ظاهر دعواهم هو تعطيل تطبيق الشريعة فقط ، مع بقاء المسلمين مسلمين ! يمارسون « دينهم » كما يشاءون !

ولعل الدعوى التى ناقشناها فى المبحث الأول قد برزت حقيقتها الآن ، وبرزت خلفيتها !

إنه لمثل هذا قيل للمسلمين : أنتم مسلمون ولو لم تطبقوا شريعة الله! فما دمتم تصلون وتصومون .. أو ما دمتم تقولون لا إله إلا الله فأنتم مسلمون !!

إنه لا إسلام بغير شريعة الله !

وقد ناقشنا هذه القضية فى المبحث الأول بما أعتقد أنه يبين وجه الحق فى القضية ، ويكفى قوله تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[1]

قوله تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ .. ﴾[2] .

لا إسلام بغير شريعة الله !

وإن الدين الذى هو عقيدة فقط ، أو عقيدة وشعائر تعبدية ، دون شريعة تحكم تصرفات الناس فى الأرض ، لهو دين جاهلى مزيف لم يتنزل من عند الله ..

وما من رسالة سماوية كانت عقيدة فقط ، أو عقيدة وشعائر تعبدية ، دون شريعة تحكم تصرفات الناس فى الأرض .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ

---

(١) سورة النساء [٦٥] .

(٢) سورة النور [٤٧–٤٨] .

وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾[1] .

فالرسالة التى حملها إلى مدين أخوهم شعيب هى عبادةُ الله وحده بما يتضمنه ذلك من عقيدة وشعائر تعبدية ، وأمرٌ لهم ألا يتصرفوا فى أموالهم حسب أهوائهم ، بل يتقيدوا بشريعة الله المنزلة إليهم . وهذا الذى فهمه قوم شعيب واستنكروه منه لكفرهم وجاهليتهم فدمر الله عليهم .

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ! ﴾[2] .

أى : أمن مقتضيات دينك الذى تدعونا إليه أن نترك عبادة آلهتنا التى ورثنا عبادتها عن آبائنا ، وأن تقيد تصرفنا فى أموالنا فلا نستطيع أن نتصرف فيها إلا بمقتضى التعاليم التى تحملها ؟! ثم يقولون له فى سخرية ظاهرة : من أين لك أيها الحليم الرشيد أن تقيدنا بهذه القيود ؟!

وحين قالوا ذلك : أى رفضوا العقيدة والشريعة كانوا كفاراً ومشركين :

---

(١) سورة هود [٨٤-٨٥] .

(٢) سورة هود [٨٧] .

﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء ﴾[1] .

ونجد فى سورة الشعراء سجلًا لمجموعة متتابعة من أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم ، كل نبى يأمر قومه أن يعبدوا الله ويطيعوا رسوله ، ثم يذكر لهم رسولهم ما هم واقعون فيه من انحراف فى تصرفاتهم الدنيوية ، ويطلب منهم تصحيحها بما يناسب مقتضى إيمانهم بالله ، أى بمقتضى الشريعة المنزلة إليهم من عند ربهم :

﴿ كذبت عاد المرسلين (١٢٣) إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون (١٢٤) إني لكم رسول أمين (١٢٥) فاتقوا الله وأطيعون (١٢٦) وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين (١٢٧) أتبنون بكل ريع آية تعبثون (١٢٨) وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون (١٢٩) وإذا بطشتم بطشتم جبارين (١٣٠) فاتقوا الله وأطيعون .. ﴾[2] .

﴿ كذبت ثمود المرسلين (١٤١) إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون (١٤٢) إني لكم رسول أمين (١٤٣) فاتقوا الله وأطيعون (١٤٤) وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين (١٤٥) أتتركون في ما ها هنا آمنين (١٤٦) في جنات وعيون (١٤٧) وزروع ونخل طلعها هضيم (١٤٨) وتنحتون من الجبال بيوتا

---

(١) سورة النحل [٣٥] .

(٢) سورة الشعراء [١٢٣-١٣١] .

فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾[1] .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾[2] .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ .. ﴾[3] .

فإذا جئنا إلى الرسالات الثلاث الأخيرة نجد عنها حديثا مفصلا فى كتاب الله :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ

(١) سورة الشعراء [١٤١-١٥٢] .

(٢) سورة الشعراء [١٦٠-١٦٦] .

(٣) سورة الشعراء [١٧٦-١٨٣] .

وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ؟! ﴾[1] .

(١) سورة المائدة [٤٤–٥٠] .

كلا ! لا يوجد دين هو عقيدة فقط ، أو عقيدة وشعائر تعبدية بلا شريعة !

وإنما جاء المفهوم الغربى « العلمانى » للدين ، على أنه علاقة خاصة بين العبد والرب ، محلها القلب ، ولا علاقة لها بواقع الحياة .. جاء من مفهوم كنسى محرف ، شعاره : « أدّ ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . ومن واقع عانته النصرانية خلال قرونها الثلاثة الأولى ، حين كانت مضطهدة مطاردة من قبل الإمبراطورية الرومانية الوثنية ، فلم تتمكن من تطبيق شريعتها ، واكتفت بالعقيدة والشعائر التعبدية – اضطراراً – واعتبرت ذلك هو « الدين » . وإن كانت لم تتجه إلى استكمال الدين حين صار للبابوية سلطان قاهر على الأباطرة والملوك ، فظل دينها محرفا لا يمثل الدين السماوى المنزل . فلما جاءت العلمانية فى العصر الحديث وجدت الطريق ممهدا ، ولم تجد كبير عناء فى فصل « الدين » عن « الدولة » ، وتثبيت « الدين » على صورته الهزيلة التى آل إليها فى الغرب ، والذى قال الله فيمن يمارسه على هذا النحو : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ وهى صفات ثلاث تلحق بكل من ينحى شريعة الله عن الحكم ، ويحكم بشرائع الجاهلية .

أما الذين ينفذون بعض الشريعة ويعرضون عن سائرها فقد قال الله فيهم :

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ

﴿ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[1] .

وهذا هو الوضع الذى تريد الأقليات غير المسلمة أن تضع فيه المسلمين فى كل الأرض ، أو الوضع الذى ينادى به بعض أفراد الأمة الإسلامية ليضعوا المسلمين فيه ، بحجة وجود الأقليات غير المسلمة فى العالم الإسلامى !

أى هوان وصل إليه « المسلمون » حين تهاونوا فى دين الله ؟! حين قبلوا شعار العلمانية : الدين لله والوطن للجميع ! بينما الله يقول : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ .. ﴾[2] ويقول : ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾[3] .

والدين كله يعنى العقيدة والشعيرة والشريعة كلها سواء !

* * *

ولقد عاشت الأقليات غير المسلمة كما أسلفنا فى ظل الدولة الإسلامية المطبقة لشريعة الله ثلاثة عشر قرنا متوالية ، لا تشكو ، ولا تفكر أن تشكو ، ولا تجد مبررا للشكوى ، لأنها تجد من التسامح الدينى ما لا تجده أقلية أخرى فى الأرض كلها فى جميع التاريخ . واقرأ

إن شئت كتابا كاملا فى وصف هذا التسامح لمستشرق نصرانى هو ت.و.آرنولد T.W.Arnold بعنوان « الدعوة إلى الإسلام The Preaching of Islam »[3] كان مما جاء فيه (ص ٥١) :

---

(١) سورة البقرة [٨٥] .

(٢) سورة الأنعام [١٦٢-١٦٣] .

(٣) سورة الأنفال [٣٩] .

« ومن هذه الأمثلة التى قدمناها آنفا عن ذلك التسامح الذى بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين فى القرن الأول من الهجرة ، واستمر فى الأجيال المتعاقبة ، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام ، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة . وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح » .

إن الله قد أعد هذه الأمة إعداداً خاصا لتحكم رقعة واسعة من الأرض بمن فيها من الأقليات غير المسلمة ، التى علم الله أنها ستكون ضمن رعايا الدولة الإسلامية الحاكمة فى الأرض .

فكل أمة سابقة أرسل بعدها رسول ، آمنت بالرسول الذى أرسل إليها وكفرت بمن بعده ، وصار فى قلبها غلٌّ نحو الذين آمنوا بالرسول الجديد ولو كانوا من قومها الأقربين، واضطهدتهم اضطهادا شديدا بسبب الخلاف فى العقيدة .

أما هذه الأمة فقد قدر الله لها أن يكون رسولها هو الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم ، الذى لا نبى بعده ولا رسول ، فلم يجعل فى قلبها غِلًّا لأحد . لا لمن قبلها ، لأن رسولها هو سيد البشر جميعا وسيد المرسلين ، ولا لأحد يأتى بعدها ، لأنه لن تأتى بعدها أمة جديدة . ثم جعل الإيمان بالرسل السابقين جزءا من عقيدتها ، فلم تضطهد أتباعهم ، ولم تظلمهم بسبب الخلاف فى العقيدة :

---

(١) ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وزميليه ، طبع القاهرة .

﴿ الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون ﴾[1] .

ووصى الله الأمة المسلمة بالعدل مع أهل الكتاب ، والقسط لهم ، وأقام الروابط الطيبة بينها وبينهم :

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ .. ﴾[2] .

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾[3] .

وجعل الأمة المسلمة مسئولة عن حماية كنائسهم ومعابدهم ، وإتاحة الفرصة لهم لأداء عبادتهم فيها ، وتركت لهم أمورهم الشخصية تحكمها شريعتهم . لذلك عاشوا فى ظل الدولة الإسلامية أهنأ عيش تحلم به أقلية فى الأرض . وقديماً قال أهل الشام لأبى عبيدة بن

---

(١) سورة البقرة [١-٥] .
(٢) سورة الشورى [١٥] .
(٣) سورة المائدة [٥] .

الجراح: «أنتم – ولستم على ديننا – أرأف بنا من أهل ديننا»[1]. وحين كانت أوربا تضطهد اليهود فى العصور الوسطى وتطاردهم على أساس اعتقادهم أنهم صلبوا المسيح عليه السلام، لم يجدوا صدراً رحباً يؤويهم إلا الدولة الإسلامية فى الأندلس، فلما أخرج المسلمون من الأندلس بعد المذابح البشعة التى ارتكبتها محاكم التفتيش فى حقهم هاجر اليهود معهم إلى المغرب، لينعموا بالعيش الهانئ فى ظل الدولة الإسلامية هناك.

وعاشت الأقليات المختلفة فى ظل الدولة العثمانية أربعة قرون تنعم بالطمأنينة والحماية، وتمارس نشاطها كله بلا تحريج عليها، حتى جاءت روسيا وفرنسا وبريطانيا تثير الأقليات ضد الدولة لتفجرها من داخلها.

قارن هذه الحياة الهادئة المطمئنة للأقليات فى ظل الدولة الإسلامية بأحوال الأغلبية المسلمة المقهورة فى الحبشة فضلاً عن الأقلية المسلمة فى الهند، والأقلية المسلمة فى الفلبين، وغيرها من الأقليات المسلمة فى أرجاء الأرض.

أفبعد ذلك يقول قائل إن من حق الأقليات غير المسلمة أن تمنع الأكثرية المسلمة من ممارسة دينها كما أمرها الله ؟!

وأى مصيبة أصابت «المسلمين» فجعلت أفراداً منهم، يحملون أسماء مسلمة، ينادون بعدم تطبيق الشريعة الإسلامية من أجل وجود أقلية غير مسلمة بين ظهرانيهم، فكأنهم يقولون: اكفروا بدينكم أيها المسلمون، لكى تمارس الأقليات غير المسلمة دينها على التمام !!

---

(١) انظر «الدعوة إلى الإسلام» (سبقت الإشارة إليه) ص ٥٤.

المبحث السادس

شبهة عدم إمكان تطبيق الشريعة بسبب الدول العظمى وضغطها على العالم الإسلامي

تبدو هذه الشبهة من بين الشبهات جميعاً أكثرها « واقعية » .. فالدول التى نحيت فيها الشريعة الإسلامية نتيجة التدخل العسكرى لأعداء الإسلام ، ماتزال عاجزة عن السيطرة الحقيقية على شئونها وإن كانت قد استقلت ظاهرياً ، بمعنى خروج الجيوش الغازية من أراضيها . فما تزال واقعة تحت السيطرة السياسية أو الاقتصادية لهذه الدولة أو تلك من القوى العالمية التى تسمى « الدول العظمى » ، وماتزال فى حالة من الضعف السياسى والاقتصادى والحربى والعلمى والمادى ، تجعل خضوعها لسيطرة تلك القوى أمرًا واقعًا ، شئناه أم أبيناه .

ولهذه القضية – فى دراستنا هذه – وجهان :

الوجه الأول هو الإجابة على هذا السؤال : لماذا صار العالم الإسلامى إلى هذا الوضع المهين إزاء القوى العالمية المتسلطة ؟

والوجه الثانى هو الإجابة على هذا السؤال : هل حقاً لا نملك أن نصنع شيئاً إزاء ذلك التسلط العالمى على الأمة الإسلامية ؟

فإذا تبينّا هذين الوجهين ، فسيتبين لنا مدى الواقعية الحقيقية لهذه الشبهة من بين الشبهات .

* * *

فأما السؤال الأول فما بنا هنا أن نتكلم عنه بإسهاب[١] . وإنما نختصر الإجابة عنه أشد الاختصار ، فنقول إن السبب فى هذا الوضع المهين هو تهاوننا التدريجى المتزايد فى التمسك بحقيقة هذا الدين ، وانحسار مفاهيمه كلها عن حقيقتها التى نزلت بها من عند الله ، واتخاذها صورة غريبة على هذا الدين ، بدءاً من مفهوم لا إله إلا الله ، إلى مفهوم العبادة ، إلى مفهوم القضاء والقدر ، إلى مفهوم الدنيا والآخرة ، إلى مفهوم الحضارة وعمارة الأرض ، إلى مفهوم الجهاد ، إلى مفهوم التربية ، إلى مفهوم الأخلاق ، إلى مفهوم العلم .. إلى مفهوم كل شىء فى هذا الدين ![٢]

لا إله إلا الله تحولت إلى كلمة تنطق باللسان ، وقد كانت منهج حياة كامل !

العبادة انحصرت فى الشعائر التعبدية وقد كانت شاملة لكل عمل وكل فكر وكل شعور فى حياة المسلم المؤمن !

عقيدة القضاء والقدر كانت قوة دافعة رافعة ، فصارت قوة مثبطة مخذلة !

الدنيا والآخرة كانتا فى حس المسلم حسبة واحدة وطريقًا واحدًا أوله فى الدنيا وآخره فى الآخرة ، فأصبحت معسكرين متضادين : إما أن تعمل للدنيا وإما أن تعمل للآخرة .. ولا يجتمعان !

الحضارة كانت مفهوماً شاملاً يشمل العقيدة والقيم والأخلاق والنظم والتنظيمات والأفكار والنشاط المعمر للأرض ، فصارت مفهوماً سطحياً مادياً خلواً من القيم الحقيقية التى تتميز بها حياة الإنسان المسلم !

---

(١) انظر إن شئت : « واقعنا المعاصر » فصل « آثار الانحراف » .

(٢) انظر إن شئت : « مفاهيم ينبغى أن تصحح » .

الجهاد كان حركة بانية لإزالة الجاهلية من الأرض ، وإحلال المنهج الربانى محلها ، والتمكين لدين الله فى الأرض ، فانحصر فى الجهاد « الدفاعى » ثم انحسر على يد الصوفية إلى جهاد النفس وترك الفساد يعج فى الأرض !

التربية كانت تربية شاملة هدفها تكوين المسلم المؤمن العالم بدينه ، المتخلق بأخلاقياته ، المجاهد فى سبيله ، فصارت تربية تقليدية تخرّج شخصيات سلبية وإمعات لا دور لهم فى شيء إيجابى ، ولا قدرة لهم على البناء ، ولا على مواجهة مستجدات الحياة .

الأخلاق كانت معنى شاملاً يشمل أخلاق السياسة وأخلاق الاقتصاد وأخلاق الاجتماع وأخلاق الفكر وأخلاق الأدب وأخلاق الأسرة وأخلاق الجنس ... فانحصرت فى بعض ألوان السلوك دون بعض ، وتحولت إلى تقاليد خاوية من الروح !

العلم كان شاملاً للعلوم الدينية والعلوم الدنيوية من طب وفلك ورياضيات وفيزياء وكيمياء .. الخ ، فانحصر فى العلوم الدينية ، وانحصر فى حدود مذهبية ضيقة ، وعصبية مذهبية سقيمة ، وتقليد فكرى لا يبدع !

ولما حدث ذلك كله ، نتج عنه التخلف العلمى والمادى ، والحضارى ، والسياسى ، والحربى ، والاقتصادى ، والأخلاق ، الذى اجتذب الأعداء من كل صوب ليحاولوا القضاء على الإسلام !

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يارسول الله ؟ قال : إنكم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم ،

وليقذفن فى قلوبكم الوَهْن . قالوا : وما الوهْن يارسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت »[1] .

فكون المسلمين اليوم مستضعفين.. حقيقةٌ، ولكنها حقيقة يقع وزرها على المسلمين أنفسهم ، ولا تصلح عذرًا لمجموع الأمة يوم القيامة ، اليوم الذى قال الله بشأنه : ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾[2] .

وقد يقول المسلمون - وهم صادقون - إن كيد الأعداء شديد .

ولكن ينبغى أن نذكر أن هذا الكيد ليس ابن اليوم ، وليس ابن الأمس القريب .. إن عمره على وجه التحديد أربعة عشر قرنًا ونيفاً ، أى منذ نزل هذا الدين .. ولنعد إلى كتاب الله نجد وصفاً دقيقاً لهذا الكيد من كل الأطراف الحاقدة على لا إله إلا الله ، والأمة التى أقامت لا إله إلا الله واقعاً معاشاً فى الأرض ، أولئك هم اليهود والنصارى والمشركون والمنافقون . ما تغير موقفهم منذ أربعة عشر قرناً ، وما تغيرت الأسباب التى دعتهم إلى موقفهم :

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[3] .

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ﴾[4] .

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود .

(٢) سورة القيامة [١٤-١٥] .

(٣) سورة البقرة [١٢٠] .

(٤) سورة البقرة [٢١٧] .

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[1] .

كلا ! ليس الكيد ابن اليوم ، ولا ابن الأمس القريب .. فهو قديم قديم ، وإن كانت بعض الوسائل قد تغيرت ، فإن كل جيل من البشر يستخدم فى صراعاته الأدوات المتاحة له فى جيله .. وإنما الذى تغير حقا هو موقف الأمة الإسلامية من هذا الكيد ، وليس الكيد فى ذاته ولا وسائل الكيد .

إن الله ينبه الأمة فى كتابه المنزل إلى أعدائها ، وإلى مواقفهم ، ووسائلهم ، وتدبيراتهم الظاهرة والخفية ، ثم يقول لهم : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾[2] .

هذه إذن هى القضية ..

إنهم لن يكفوا عن الكيد أبدًا مادامت الأمة المسلمة قائمة ، ومادامت هناك فرصة للنيل منها .. ولكن هناك أداة ربانية ترد كيدهم فى نحورهم ، فلا يضر الأمة بشىء :

﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[3] .

---

(1) سورة البقرة [١٠٩] .
(2) سورة آل عمران [١٢٠] .
(3) سورة آل عمران [١٢٠] .

فما تلك الأداة الربانية التى ترد الكيد فيتراجع خاسئاً وهو حسير ؟ أهى تعويذة تتلى أو تميمة تعلق على الصدر ؟ كلا ! إنها عمل إيجابى ضخم تلخصه هاتان الكلمتان : تصبروا .. وتتقوا .

وحين انحرف فهم المسلمين لكل مفاهيم الإسلام ، انحرف فى حسهم كذلك مفهوم الصبر والتقوى ، فتحولا إلى سلبية ليس فيها غناء .

ولنعد إلى سياق الآيات لنفهم المقصود بهاتين الكلمتين العظيمتين .

إن الأعداء يريدون أن يُجْلُوا المسلمين عن دينهم ، ويردوهم من بعد إيمانهم كفارًا .. فما الصبر المطلوب إذاً ؟

إنه الصبر على تكاليف هذا الدين . والصبر فى مواجهة الأعداء . وثبات المسلمين على دينهم مهما فعل الأعداء لإجلائهم عنه ..

وما التقوى ؟ إنها تقوى الله . أى اتقاء غضب الله وسخطه . فبأى شىء يتقى غضب الله وسخطه ؟ هل من سبيل إلى ذلك إلا طاعته فيما أمر به والانتهاء عما نهى عنه ؟!

هذا هو الصبر وهذه هى التقوى اللذان يصدان الكيد فلا يضر . وهما كما نرى قوتان إيجابيتان هائلتان ، متينتان كالحصن ، لا يجد الأعداء عندهما ثغرة للنفاذ إلى الأمة وإلحاق الضرر بها . والضرر المقصود هنا ليس هو الأذى الذى يصيب الأفراد ، إنما هو الضرر الذى يلحق بالدين ، الذى هو عماد هذه الأمة وكيانها الحقيقى . أما الأذى فهو يقع ، ولكنه لا يؤثر فى كيان الأمة ، ولا يحولها عن طريقها :

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾[1] .

وكذلك كان حال الأمة مع أعدائها يوم كانت قائمة بالشرط .. كانت ممكّنة فى الأرض . وكانت هى الغالبة وهى المستعلية . وكان كيد الأعداء مردوداً إلى نحورهم كما ارتد أيام الحروب الصليبية الأولى[2] ، وأيام حروب التتار ، وغيرهم وغيرهم من الأعداء .

فإن قلنا اليوم إن الكيد شديد ، فهذه حقيقة ، ولكنها حقيقة لا تعفى الأمة من مسئوليتها أمام الله ، يوم يكون الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره .

* * *

تحدثنا عن الوجه الأول من القضية . ومعرفته ضرورية لنا ، لنتعرف على طريق الخلاص . فإن الطبيب إذا لم يتعرف على حقيقة الداء ، والأسباب التى أدت إليه ، فلن يصف الدواء الحقيقى الذى يؤدى - بإذن الله - إلى الشفاء .

أما الوجه الثانى فهو الرد على هذا السؤال : أحقاً لا نستطيع شيئاً إزاء كيد الأعداء ؟!

إن أحداً من الجادين لا يقول ذلك . وإن اختلفت درجات الجد وزوايا الرؤية ومناهج العاملين .

---

(١) سورة آل عمران [١١١] .

(٢) تميزاً لها عن الحروب الصليبية الثانية ، التى تدور منذ قرنين أو ثلاثة وماتزال دائرة .

إننا فى الحقيقة نملك الكثير .. إذا عزمنا العزمة الصادقة ، واتجهنا الاتجاه الصحيح . أى إذا عزمنا عزمة صادقة أن نعود إلى حقيقة ديننا ونتحمل التكاليف .

إنه لابد من الجهاد ..
وكل طريق غيره لا يؤدى إلى شيء ..

والذين يتهيبون الطريق يقدمون بدائل يحسبونها تؤدى إلى الخلاص وتعفيهم فى ذات الوقت من الجهاد .

وعند التحليل الواقعى تتكشف هذه البدائل عن أوهام ..

يقولون : نبنى اقتصادياتنا على أسس متينة ، فكل شيء فى عالم اليوم مبنى على الاقتصاد .

ونقول : مرحباً ببناء اقتصادياتنا على أسس متينة ، فذلك أمر لا غنى عنه فى أى حال من الأحوال .

ولكن الوهم يقع عند الظن بأن هذا الطريق سيوصلنا - وحده - ويعفينا من الجهاد .

إن الذين يتحكمون فينا ليمنعونا من تطبيق شريعتنا ، هم أنفسهم الذين يتحكمون فينا ليبقى اقتصادنا عالة عليهم ، ولا يستقل عنهم ، ولا يستغنى عن تدخلهم ، ولا يصل إلى حد الاكتفاء .

وليست هذه دعوة إلى اليأس من الإصلاح .. كلا ! ولكنها فقط تبصرة بأن الأمر لا يستغنى عن الجهاد .

إن الأرض التى انتشر فيها الإسلام - بقدر من الله - هى بفضل الله أغنى بقعة فى الأرض ، بثرواتها البشرية والمعدنية والمائية ، وكل أنواع الطاقات ، ولكن أهلها اليوم هم أفقر سكان الأرض ، وأشدهم جوعاً ومرضاً وتخلفاً .. ولو كانت هذه الثروات والطاقات ملكاً حقيقياً لأهلها لكانوا أغنى سكان الأرض .. فمن الذى يمنعهم

من امتلاكها والتصرف الحر فيها ؟ هم ذات الأعداء الذين يمنعونهم من تطبيق شريعتهم !

إن فى السودان وحده مساحة من الأرض يقول الخبراء إنها لو زرعت قمحاً لكفت افريقيا كلها ، ودفعت عنها غائلة الجوع بفضل من الله . وقصتها أنها من أخصب بقاع الأرض ولكنها مستنقعات لا تصلح فى صورتها الراهنة لشيء . والسبب فى ذلك أنه يحدث فى النيل فى وقت واحد فيضانان ، أحدهما تسببه الأمطار المحلية فى السودان ، التى تملأ النهر بالماء ، ثم يأتى الفيضان الآخر من الحبشة محملاً بالغرين الذى يخصّب الأرض ، فيجد النهر ممتلئاً فيفيض على الجنبين ويجعل الأرض مستنقعات . والمشروع المطلوب هو حفر قناة وإنشاء خزان تختزن فيه المياه القادمة من الحبشة حتى يتصرف الماء المتجمع من الأمطار المحلية ، فيستفاد من هذه المياه وتلك ، ويستفاد من الأرض بعد تجفيفها وإعدادها للزراعة ، فيزرع فيها من القمح ما يكفى افريقيا كلها .

فما الذى يمنع من تنفيذ ذلك المشروع الحيوى (وهو مدروس من الوجهة الفنية منذ ما يزيد كثيرًا على نصف قرن) ؟ تمنع من تنفيذه عوامل كثيرة ، ليس أقلها تحكم القوى العالمية فى اقتصادياتنا بحيث لا نجد فى أى وقت فائضاً من المال نوجهه لمثل هذا المشروع النافع ، ولا فسحة من الوقت ننتظر فيها ثماره (ولابد أن يستغرق بضع سنوات من الإنفاق قبل أن يعطى الثمار) لأننا نلهث دائماً وراء تلك القوى نستمطر رحمتها لكى تسعفنا بلقمة الخبز ، وتجدول لنا الديون التى نقترضها منهم للوفاء بلقمة الخبز للجماهير الجائعة ، ثم تذهب مذاهب لا يعلمها إلا الله ، وتثقل الجماهير بدفع فوائد القروض !!

وفى آسيا مساحات شاسعة من الأرض القابلة للزراعة ، وكميات هائلة من الماء الذى يذهب هدرًا فى المحيطات ، أو يغرق الأرض فى فيضانات هادرة تهلك الحرث والنسل .. ويحتاج الأمر إلى مشروعات هندسية لتنظيم استخدام الماء ، وتخزينه وقت فيضانه وتوجيهه إلى الزراعة وإنتاج الكهرباء .. فما الذى يمنع من تنفيذ تلك المشروعات ؟ ذات العوامل .. ذات القوى المتسلطة التى لا تريد للمسلمين أن يقوموا من وهدتهم .

فكيف تواجه تلك القوى بغير جهاد ؟!

ويقولون : نقوى أنفسنا بالسلاح لكى نواجه الأعداء !

ونقول : مرحباً بتقوية أنفسنا بالسلاح .. فذلك أمر لا غنى عنه فى أى حال من الأحوال .

ولكن الوهم يقع مرة أخرى حين نظن أن هذا الطريق موصل بذاته ، بغير جهاد .

فمن أين نأتى بسلاحنا ؟

إنه من عند ذات القوى التى تمنعنا من تطبيق شريعتنا ، وتمنعنا فى الوقت ذاته من تملك القوة الحقيقية التى نحمى بها أنفسنا فضلاً عن أن تكون عندنا قوة ترهب الأعداء ، كما أمر رب العالمين :

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ..﴾(١) .

وحين نحاول أن نصنّع شيئاً من وسائل القوة تهددنا القوى المتسلطة أو تضربنا .

(١) سورة الأنفال [٦٠] .

ولنتذكر جيدًا أن « القوى العظمى » مكنت إسرائيل من ضرب المفاعل النووى فى إحدى الدول العربية بحجة أنه يهدد أمنها ، بينما تملك إسرائيل ثلاث مفاعلات نووية - بحماية القوى العظمى - تهدد بها أمن العالم العربى بأسره والعالم الإسلامى !

ولنذكر أيضاً أن أمريكا هددت بضرب ليبيا بحجة أنها تسعى فى إنشاء مصنع للأسلحة الكيماوية ! بينما تملك كل دول الغرب مصانع ومصانع من كل نوع من أنواع السلاح بما فى ذلك الأسلحة الكيماوية الممنوعة على ليبيا !

ولا تجد « الدول العظمى » فى نفسها خجلاً من مثل هذه التصرفات المكشوفة ، لأنها « عظمى » .. لأنها تملك القوة !

ومن قبل تذرعت بريطانيا « العظمى » لاحتلال مصر عام ١٨٨٢م ، بأن مصر ترمم حصونها الساحلية فى أبى قير !! فمجرد ترميم الحصون القديمة اعتبرته بريطانيا عملًا عدائيًا ضدها ! عملًا يستوجب التأديب ! .

فهل من سبيل لرفع ذلك الجور المحيط بالأمة الإسلامية فى جميع الميادين إلا بالجهاد ؟!

يقولون : نتعلم .

ونقول : مرحباً بالعلم ، فذلك أمر لا غنى عنه فى أى حال من الأحوال .

ولكن أبناءنا حين يتعلمون بغير روح الجهاد ، فإنما يتعلمون قشورًا من العلم ، ولا يصبرون على تكاليف العلم الحقيقى . ويتعلمون لكى يحصلوا على ورقة تؤهلهم للوظيفة المريحة فى العمل المريح ، ويهربون من العمل الشاق الذى ترتقى به البلاد . ومن شذ منهم فبرز فى علمه حقيقة تسعى « القوى العظمى » إلى شرائه ، إما

بإغرائه بالهجرة إليها ، وإما بشراء فكره وقلبه فيكون أداة إفساد فى وطنه بدلاً من أن يكون أداة إصلاح ..

ويقولون ويقولون ويقولون ..

كل الوسائل التى يقترحونها تدور فى مدى معين ، هو المدى الذى رسمته لنا القوى العالمية التى تحارب تطبيق شريعة الله .. فهل من سبيل إلا بالجهاد ؟!

* * *

يقول الذين يتهيبون الطريق .. كيف نجاهد ونحن مستضعفون ؟ كيف نجاهد ونحن فى قبضتهم أنّى اتجهنا ؟

وهؤلاء نقول لهم : انظروا إلى الجهاد الأفغانى .. وانظروا إلى الانتفاضة الإسلامية فى فلسطين .

من كان يتصور - أو يصدق - أن أمة شبه عزلاء تضطر أكبر قوة وحشية فى التاريخ الحديث أن تسحب جنودها من الميدان ؟!

إن الجهاد الأفغانى آية من آيات الله .. إنه تصديق عملى لما جاء فى كتاب الله :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾(1)

لقد كاد انتصار الفئة القليلة المؤمنة على أضعافها من القوى الكافرة يصبح أسطورة فى حس « المسلم المعاصر » ، أو على الأكثر ذكرى لأيام خلت لا يمكن أن تعود !

وحين يقرأ « المسلم المعاصر » فى كتاب الله أمثال هذه الآيات :

---

(1) سورة محمد [7] .

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1] .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2] .

حين يقرأ « المسلم المعاصر » أمثال هذه الآيات فى كتاب الله لا يحس أنها موجهة إليه هو ، ولا موجهة إليه الآن فى هذه اللحظة . إنما يقرؤها على أنها كانت موجهة للذين تلقوا القرآن أول مرة ولا علاقة لها بالأجيال الحاضرة ! وهى فى حسه رواية عن أحداث مضت ، وليست سنناً جارية تتحقق كلما تحققت أسبابها !

ولكن الجهاد الأفغانى أعادها إلى وضعها الحقيقى .. إنها توجيهات ربانية موجهة للأمة كلها فى جميع أجيالها ، وسنن جارية تتحقق كلما تحققت أسبابها .. ﴿ تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ هذا هو المطلوب من الأمة ، وحين يقع ، يترتب عليه الجزاء الربانى ﴿ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ .

---

(١) سورة البقرة [٢٤٩] .

(٢) سورة آل عمران [١٤٦-١٤٨] .

﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]

والمعركة فى أفغانستان ماتزال دائرة ، وما ندرى إلى أى شيء ينتهى ذلك الصراع الجبار ، ولكن ما تم منه حتى اللحظة درس للمتهيبين ، ودرس للمترددين ، ودرس للمتشككين .. ودافع فى الوقت ذاته لأولى العزم من المجاهدين .

أما الانتفاضة الفلسطينية فهى درس آخر على الطريق .

إنها لا تملك إلا الحجارة .. ولكنها تملك أكبر طاقة يؤتاها البشر : الإيمان .

وقد فعلت الحجارة فى يد الصبية المؤمنين مالم تفعل أربعون سنة من المناورات والمحادثات والمفاوضات والاجتماعات فيما يسمى « المحافل الدولية » وغيرها من المنتديات .

إنها تحقيق آخر للسنن الربانية الجارية ، التى تتحقق كلما تحققت الأسباب .

ودافع لاستنهاض الهمم لمن يملك العزيمة ويبحث عن الطريق ..

* * *

لابد للأمة الإسلامية – لكى تستعيد مقومات وجودها ، وفى مقدمتها التحاكم إلى شريعة الله ، وتحقيق منهج الله – لابد لها من الجهاد ، فإن الأعداء لن يسلموا لها بشيء إلا بالجهاد .. لا التعليم الحقيقى المثمر ، ولا الاقتصاد المستقل ، ولا السلاح .. ولا شيء على الإطلاق . إنهم سيظلون يحاورون ويداورون ، ثم لا يعطون الأمة إلا

---

(1) سورة الروم [٦] .

ما يريدون هم ، وما يحقق مصالحهم هم ، لا ما يحقق الوجود الحقيقى للأمة التى لا يريدون لها الوجود !

والجهاد وحده هو الذى يحقق للأمة كيانها الذى تتطلع إليه . كيانها السياسى . وكيانها الإقتصادى . وكيانها الحضارى ، وكيانها العلمى ، وكل كيان .

ولن يتحقق شيء فى يوم وليلة ، فالمشوار طويل ، لأن المدى الذى بعدته هذه الأمة عن طريق الله ، والذى ينبغى أن تقطعه من جديد لتعود إليه .. مدى كبير ، يحتاج إلى زمن غير قصير ، وجهد غير قليل .

ولكنه أمر لابد منه ..
ينبغى لنا أن نوطن أنفسنا لجهاد طويل ..

ينبغى أن نتعلم بروح الجهاد ، ونعمل بروح الجهاد ، ونعيش بروح الجهاد ، ونحمل فى حسنا فى كل لحظة أن لنا هدفاً ضخماً نريد تحقيقه ، ونعمل على تحقيقه . فبمثل هذه الروح تولد الأمم من جديد ، وتأخذ طريقها إلى الصعود .

لابد من تربية جيل جاد ، يحمل بين جنبيه الشعلة المقدسة : شعلة الإيمان ، شعلة الجهاد .

وحين يولد هذا الجيل ، فسيحقق الله النصر على يديه ، تحقيقاً لسننه الجارية ، ولوعده الخاص لهذه الأمة :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى

ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ ﴾[1] .

وحين يولد هذا الجيل ، الذى يعيش بروح الجهاد فى كل لحظة ، فهو إما أن يجد الطريق مفتوحاً ، فيحقق أهدافه بجهاد العمل الشاق المتواصل ، وإما أن يجد الطريق مسدوداً فيفتحه بجهاد القتال .. ولا ينال فى كل حالة إلا إحدى الحسنيين :

﴿ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾[2] .

وعندئذ يصبح تطبيق الشريعة أمراً واقعاً .. وتصبح العقبات هى الأوهام !

---

(١) سورة النور [٥٥] .

(٢) سورة التوبة [٥٢] .

تعقيب

الآن وقد ناقشنا الشبهات التى تثار حول تطبيق الشريعة ، يتبين لنا أن كثيرًا منها ليس ناشئًا من تفكيرنا الذاتى ، ولا من تجربتنا الذاتية ، إنما هى أفكار أثارها فى حياتنا الغزو الفكرى ، ليباعد بيننا وبين العودة إلى الشريعة الربانية بعد إذ أجلانا عنها الغزو الصليبى . وأن ما يتعلق منها بعدم إمكان التطبيق هو مجرد عقبات مصطنعة جسمت لنا لتصدنا عن المحاولة ، بل عن مجرد التفكير ..

وكثيرًا ما تكبر الأوهام فى نفوس الناس حتى تصبح فى وهمهم هى الحقيقة ، ويصبح الحق هو الخاطر البعيد الذى يحتاج إلى جهد لتثبيته مكان الأوهام .

وليس العجب على أى حال أن يسعى أعداؤنا إلى تشكيكنا فى ديننا ، فهذا دأبهم منذ نزل هذا الدين . إنما العجب أن يتبعهم فى تشكيكهم « مسلمون » يحملون أسماء إسلامية ، ويقولون بأفواههم لا إله إلا الله .

وأياً تكن الأسباب التى أدت بهؤلاء أن يقفوا ذلك الموقف ، فإن ذلك يفتح أعيننا على التبعة الجسيمة التى تقع على عاتقنا إزاء هذه الأوضاع .

إنه ما كان لهذه الشبهات أن تثار ، وما كان للغزو الفكرى أن يتوغل فى حياة الناس ، لو أن الناس كانوا على فهم حقيقى للإسلام ، وممارسة حقيقية لمقتضيات الإيمان .

والتبعة الكبرى تقع الآن على الدعاة ..
هم الذين ينبغى أن يدركوا حقيقة الأوضاع الراهنة فى الأمة ، ويقدموا لها العلاج .

ولن تكون الدعوة مجرد دروس ومحاضرات ، ولن تكون مجرد وعظ يلقى على أسماع الناس ، إن هذا كله مفيد ولازم للدعوة ، ولكنه - وحده - لا يصنع شيئاً فى حقيقة الأمر .

إنما الدعوة قدوة وتربية ، قبل أن تكون وعظاً ودروساً ومحاضرات .

وذلك الذى ينبغى أن يدركه الدعاة جيدًا إن أرادوا حقاً تغيير واقع هذه الأمة ، وردها إلى الجادة من جديد .

وحين يدرك الدعاة مهمتهم الأصيلة ، فسيكون جانب منها ولا شك بيان حقيقة التوحيد ، وأنها عبادة الله وحده بلا شريك ، وإقامة الحياة كلها بمقتضى المنهج الربانى - بما فى ذلك تطبيق شريعة الله - ونبذ كل الآلهة المزعومة التى تقف فى طريق التوحيد الخالص ، بما فى ذلك دعاوى الجاهلية المعاصرة التى تناوئ بها عبادة الله ، باسم التطور مرة ، وباسم الحضارة مرة ، وباسم العلم مرة ، وباسم ثورة التكنولوجيا مرة ، وباسم الرأى العام العالمى مرات ..

وسيكون جانب من مهمتهم ولا شك تلقين الشباب - من خلال القدوة والتربية - أن الإيمان قول وعمل . فليس الإيمان كلمة . وليس وجداناً مستسرا فى الضمير . وليس « مفهوماً » فكرياً يلقى . إنما هو الكلمة والوجدان والمفهوم الفكرى مترجمة كلها إلى واقع سلوكى مشهود . واقع يغير النفس من داخلها ويغير الحياة الواقعية ، فيشكلهما بمقتضى المنهج الربانى ، المنزل فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

سئلت عائشة –رضى الله عنها – عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن »[1] .

وبهذه الحقيقة الهائلة التى عاشها رسول الله ﷺ وربّى عليها أصحابه رضوان الله عليهم تغيرت الأرض ، وبرزت إلى الوجود خير أمة أخرجت للناس .

والبشرية الضالة اليوم – برغم كل ما تملكه من علم ومن حضارة ومن تكنولوجيا – فى أشد الحاجة إلى مثل ذلك التغيير مرة أخرى ، ليرتد إليها صوابها ، وتعود إلى عبادة الله ، وتنبذ عبادة الشيطان ، وتستخدم ما فتح الله عليها من العلم والحضارة والتكنولوجيا فى أداء المهمة الكبرى التى خلقت من أجلها :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[2] .

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ﴾[3] .

والدعاة – الذين تقع عليهم هذه التبعة الهائلة – يلزمهم ، فيما يلزمهم ، أن يكونوا هم القدوة لما يدعون الناس إليه ، وأن يمارسوا هذا الدين على نطاقه الأشمل ، ليعرضوا للناس حقيقته كاملة ، وأن يركزوا على بناء القاعدة الصلبة التى تحمل التبعة وتحسن المسير .

وبالله التوفيق

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) سورة الذاريات [٥٦] .

(٣) سورة الأنعام [١٦٢-١٦٣] .

الفهـرس

رقـم الإيـداع : ٣٢١٣ / ١٩٩١

طبـع بـدار نوبـار للطباعـة

صدر عن مكتبة السنة بالقاهرة

أحدث مؤلفات الأستاذ :

محمد قطب

- ✲ الصحوة الإسلامية .
- ✲ قضية تحرير المرأة .
- ✲ حول تطبيق الشريعة .

✲ ✲ ✲

تحت الطبع

وسيصدر في أول شهر رمضان ١٤١١ هـ
إن شاء الله

رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر

محمد قطب